شادي

شادي

إيمـان خلـيل

اهـــداء..

اهداء الي فيروز...

علي مدار سنوات شاركني صوت فيروز كل صباحاتي

زرع صوتها السلام والأعاصير في قلبي

فيروز هي سر مزاجي (الرايق) كما يراه البعض أو مزاجي (الحزين) كما يراه البعض الاخر...

فيروز هي..

صوت الحنين

ترنيمة السلام

زمن الحلم

مقدمة ..

لطالما اعتقدت أن العلاقات الخطرة هي العلاقات التي يملؤها الحروب والنزاعات العاطفية والفكرية، العلاقات التي تفوح منها رائحة الخيانة أو تشيخ بها المشاعر في ربيع العمر.

حتى اكتشفت أن بعض العلاقات قد تدفعك إلى الجنون في صمت، بعض العلاقات تبدو هادئة ومستقرة ولكنك ابدا لا تدري بأنك تُقتل كل يوم وكأنك تستنشق غاز سام دون أن تدرك، بعض العلاقات تطفئ الضوء بداخلك تظن بأن الشمس فقط قد غابت وأنها ستشرق لا محالة.

حتى تكتشف فجأة أنك انطفأت

لم أدرك يوما بأن هناك أشباه أشباه حياة، أشباه حب، أشباه فرح وصفات مزيفة تشرح لك كيف تعيش الحياة، كيف تلتئم جراحك وكأنها تعلمك كيف تنزف في صمت.

الكل يدعي المثالية، يشكو التخبط في الأمس، يتعجب من الظلم والهجر.

ولا أحد يعلم بأننا جميعا مذنبون، جميعا نتحمل مسئولية هذا الحزن.

للبدايات سحر خاص يختطفك من الواقع، البدايات بذرة الخيال تنمو بداخلنا لتخلق عالم افتراضي من الحلم، البدايات دوما مشرقة لان كل ما يليها تصنعه أنت من وحيك، تظل تخطط كيف ستولد الحكاية من رحم البداية تفكر في اسم لها في هيئتها في تحركاتها وتحتفل بها كمولودك الأول، تنتظر أولى كلماته أولي ابتساماته و لوهلة تظن بأنك تملك مفاتيح الحكاية بأكملها.

وهذا ما توهمته أنا وأنتم يوما!

اسمي (سارة)!

لم تمنحني الحياة فرصة لأسأل أهلي لماذا اختاروا هذا الاسم دون غيره ! و ماذا كانت تعني لهم سارة ،أعتقد أنه سحر البدايات مرة أخري ! لحظة ميلادي عندما حلما بالأسرة السعيدة والبنت الشقية التي ستضفر أمها شعرها كل يوم قبل الذهاب الى المدرسة و تحكي لها حكاية قبل النوم عن الاميرة المسحورة لتخبرها بأنها أجمل من الاميرة وعن اللحظة التي سيمنحا جوهرتهم الغالية الي فارس الأحلام، لم يدركا أن أحلامهم لم تكن سوي نشوة البدايات وأن عليهم الرحيل الي عالم أخر ربما أكثر صدقا ولكنه بلا سارة.

كنت في الخامسة من عمري لا اتذكر الان سوي ملابس الحداد، بعض الضجيج في المشفى، دموع جدتي، هرولة أقاربي، كنت اتلفت حولي ولا افهم ماذا يحدث وفي براءة طفلة كنت انتظر فقط العودة إلى البيت لأشاهد الكارتون، كنت انتظر أمي وأبي حتي يعودا، لم أدرك وقتها أن كل هذه الفوضى (حيث كنت اراها وقتها) كانت من أجلهم

لم ادرك وقتها ان امامي عمر كامل اشاهد فيه الكارتون قبل أن يعودا!

عشت بعدها مع جدتي الصماء وحدنا في هذا المنزل الكبير، كنت اكره البيوت الكبيرة كنت دائما اشعر ان هناك علاقة عكسية بين حجم المنازل وسكانها فالبيوت الصغيرة يملؤها الدفء على عكس البيوت الكبيرة التي فالأغلب يرحل كل من يسكنها مع الوقت.

بالرغم من صغري ولكني كان يؤرقني وجودي مع جدتي في مكان واحد كنت اتسأل كيف سأتعامل معها لوحدي وهي لا تسمعني فقد كانت علاقتي بها لا تتعدي الزيارات الأسبوعية ولكني أدركت الجانب المشرق بعد ذلك فأنا بإمكاني الصراخ متى شئت دون أحد أن يشتكي أو يعلم، كانت أمي ابنتها الوحيدة ،و دائما ما كانت تخبرني جدتي بأني أشبهها في كل شئ، لون بشرتي البيضاء، شعري الأسود، هدوئي وحبي للكتابة، لا أذكر الكثير عن أمي ولكن جدتي كانت تأكد لي دوما أنها أحبتني.

أما أبي فلا أحد حدثني عنه، لا أملك عن سيرته شئ سوي بعض الصور مع أمي، لابد من أنه كان يحبها كثيرا، ابتسامتهم كانت صادقة، عناقه لها، نظرات عينيه كان دائما ينظر إليها في حب في كل الصور!

عشت سنوات طوال أتواصل بالإشارات فتعلمت الصمت عن ظهر قلب، وتعلمت هي أن تقرأني أيضا في صمت، كنت هادئة كفجر شتاء بارد، كان لجدتي وجه بشوش دائما ورائحة تشبه المسك ،كنت أشعر معها بدفء الأهل الذي حرمت منه.

أحبتني كثيرا ربما لأنها كانت تري بي أمي التي فقدتها أو ربما لأنها كانت كثيرا ما تشعر بالشفقة علي

أذكر رسائلها اليومية التي كانت تكتبها لي كل صباح في ايام الدراسة فور استيقاظي:

-ها قد أشرقت شمس يوم جديد..و لكن شمسي لازالت نائمة..

-كيف لم توقظك رائحة القرفة بعد..فقد سكبت العلبة في فطورك..

-أن كنت تنتظري قبلة الأمير فلن تلحقي المدرسة اليوم..

والكثير من الرسائل التي كنت ابدأ بها يومي بابتسامة ، كانت تنهي رسائلها القصيرة دوما بأحبك

فأتجه اليها في المطبخ أقبلها وأفطر معها في انتظار باص المدرسة.

في المدرسة ،كنت طفلة خجولة ربما كان يراني البعض غريبة الأطوار خاصة عندما كانت تمشطني جدتي لأظهر وكأني قادمة من القرن التاسع عشر ، كنت أحتضن دوما كتاب معي وكأنه حصن أو مهرب من الوقوع في أي حديث بلا معنى مثل: ماذا يعمل والدك؟ مسكينة..كيف توفي؟ ما سر تسريحة شعرك؟كيف تتعاملي مع جدتك؟

وقد يزداد الوضع حماقة خاصة في سن المراهقة علي ترويج الإشاعات و الأسئلة الغريبة مثل: هل تعلمي أن مي تحب مدرس الكيمياء؟ لماذا تنورتك طويلة هكذا؟هل لاحظت أن عماد كان ينظر إليك عندما كنت تتناول وجبتك؟

لم أكن أكترث بحب مي أو بمدرس الكيمياء أو حتي بنظرات عماد رغم ملاحظتي لها، فربما كان جائع وقتها! فهو لم يحدثني قط ربما

كان يخشاني مثل الكثير من الأولاد في المدرسة..

لم أكن أكترث أن البس تنورة قصيرة أو أضع مساحيق التجميل كي ألفت الانتباه ، كنت فقط أنتظر انتهاء اليوم الدراسي حتى أعود هاربة الى جدتي..الي غرفتي..

عشت عمرا طويلا بين جدران تلك الغرفة، أتصور عالم بالخارج لا أدري عنه شئ..

كانت الكتابة ملاذي الأول والأخير، كنت أكتب أحلامي على ورقات صغيرة حتى صنعت منها شجرة، شجرة الأحلام

كنت أطوقها بشرائط من الأضواء الخافتة انظر اليها كل ليلة حتى أغفو..

و كنت أنت أول ورقة في أحلامي !!

(كن خيالا في قبح الواقع)

• • •

أتذكر ذلك الحكمة القديمة (احذر ما تتمني) فبعض الامنيات تحمل لنا من الأسى ما لا ندركه، بعض الأمنيات بمثابة رصاصة نصوبها مباشرة نحو قلوبنا، نظن بحماقة بأن الحياة تبتسم وهي تكشف عن أنيابها نظن بأن حقول الياسمين قد تفتحت في دروبنا وأن النيران المشتعلة ستبعث بنا الدفء دون أن تلتهمنا وكأننا نرتشف الخمر لنروي عطشنا، شجرة الأحلام كانت بمثابة شجرة التفاح التي أغرت آدم ودفعته للخروج من الجنة !

كنت في طريقي إلى الجامعة في قطار السادسة صباحا المتجه الى الإسكندرية، كنا في بداية شهر يناير وكان البرد بداخلي أقوى من البرد في الخارج ،احتضنت حقيبتي وأسندت رأسي على النافذة أراقب الطريق كما اعتدت كل أسبوع وعلى مدار الثلاث سنوات السابقة ،

حياة الجامعة لم تختلف كثيرا عن حياة المدرسة،ربما كنت لازالت أبدو غريبة الأطوار للبعض

في البداية كانت جدتي تقترح أن أبقى في النزل الخاص بالجامعة محاولة منها لتخرجني من عزلتي و صنع صداقات ولكن هذا آخر ما كنت أريد..

قمت بإيجار شقة صغيرة وحدي بالقرب من ستانلي

كانت شقتي مكونة من غرفة نوم وحمام واستقبال صغير يحتوي على كنبة مودرن وتلفاز لم يفتح يوما ومطبخ على الطراز الامريكي ، نافذة تري البحر من إحدى الزوايا..كان إيجارها أغلى من شقة لطالبة ولكن المبلغ الذي ورثته من أبي كان كافي لتغطية المصاريف طوال فترة دراستي

أضفت مكتبة صغيرة في غرفتي تحتوي على أكثر الكتب قربا لقلبي ..زرعت بعض النباتات على النافذة ربما لاضافة حياة للمكان.. وضعت صورة أبي وأمي بجوار سريري لتبعث بعض الدفء في الغرفة.

في البداية كنت أحب شقتي كثيرا.. ولكن الأمر قد تغير بعد ذلك!

وقت السفر ،دوما كنت أسبح في خيالي، أعود إلى الماضي أحاول أن أتذكر أي شئ عن أمي وأبي ولكن كانت تنتهي محاولتي دائما في ذكريات المشفي!

كنت أتعجب كيف يمكن أن نفتقد أشياء لم نعشها أو أناس لم نعشهم ..احيانا كنت أخلط بين الذكري وبين الحلم فلم يكن لدي مخزون ذكريات يكفي لملء الفراغ في قلبي فكنت أخلق ذكريات مزيفة كفرخ بلا روح فقط لملء العش.. شعرت فجأة وكأن القطار توقف.. تغير الهواء من حولي، سكون غامض توقفت معه كل مظاهر الحياة من حركة

الأطفال من أحاديث الركاب حتى شخير ذاك العجوز خلفي لم أعد أسمعه ! رأيته لأول مرة لا أدري من اين اتي او كيف اتي كشهاب سقط فجأة من السماء !

كانت له هيئة رجل مهم ببدلته السوداء وربطة عنق رمادية.. شعر بني داكن ممشط للخلف وذقن قصيرة كان وسيم للغاية كإحدى تلك اللوحات المرسومة بعناية دقيقة كتلك اللوحة الخيالية لدوريان جراي ولكن دون ذنب واحد يشوهها.

كانت له هيئة رجل في الثلاثين ولكن ملامح وجهه كانت توحي بأنه أكبر سنا !

اقترب مني وهمس بهدوء : هل تسمحيلي بتغيير مقعدي فهناك الكثير من الضوضاء ولا استطيع التركيز

نظرت في عينيه وشعرت فجأة بقبضة في قلبي، كانت عيناه غامضة رمادية كسماء ملبدة بالغيوم بدت لي في لحظة بئر من الأسرار سرحت طويلا قبل أن أجيب بصوت يكاد لا يسمع : بالتأكيد تفضل

استنشقت عطره وكان مزيج من العود والزهور البرية، قلت لنفسي (هذا العطر يوحي برجل شرقي متحرر)

بعد قليل نظر إلى و بإبتسامة مشرقة كزهرة تفتحت للتو سألني:

هل تعلمي لماذا يشبهوا الحياة دوما بالقطارات؟

قلت لنفسي كم هي بداية ذكية لفتح حديث ولفت الانتباه

ربما لأنها تمر مسرعة دون أن نشعر أجبته وفي داخلي رعشة

غامضة لا أفهم معناها

بل ربما لأنها محطات انتظار بين الوصول والرحيل، هنالك وقت للوصول ووقت للرحيل وهناك من ينتظر على الأرصفة، فقط ليستقبل غائب أو يلوح مودعا!

لم أدري ماذا كان يعني وقتها! اكتفيت بابتسامة للرد

مد يديه وعرف نفسه : شادى..

مددت يدي وشعرت للحظة بأني أتساقط في عينيه كورقة خريف : سارة

شعرت وكأن يده لمست روحي و تسألت بداخلي اي نوع من الأقدار هذا الذي يجذبنا لشخص واحد دون العالم من صوته من عيناه من عطره من هيئته الغامضة

يقولون بأن الجالس بجوار النافذة دوما وقت السفر هو آخر من يعرف الطريق ! سحب يده وأكمل حديثه، ربما لأن سرعة المشهد من القطار تعبث بذاكرتنا فنجد أنفسنا دوما وقت السفر نحّن لشئ ما !

الحنين لا يحتاج قطار ليكشفه، الحنين احساس مزعج يدق ناقوسه في إي وقت دون إنذار، أجبته وأنا أفكر في حنيني لأهلي الذي لم يتركني طوال السنين الماضية كجرح لم يلتئم أبدا حتى و أن وقف نزيفه

ربما انتِ محقة، اتذكر محمود درويش : (الحنين وجع عشوائي لا يستأذن من أحد) فهو يلحقنا في أي وقت ولكن الليل هو وقته المفضل ليلحق بنا فنذكر ما كنا نظن النهار قد محاه ..

أنا دوما ما أحن الى موطني إلى المغرب، فقد انتقلت إلى مصر من خمسة أعوام للعمل في السفارة ولم أنس أبدا سحر المغرب

إذن أنت تعيش في الإسكندرية منذ خمس سنوات؟ سألته

شعرت بارتباكه قليلا قبل أن يجيبني:

السفارة في القاهرة ولكني أحيانا اضطر الى السفر إلى الإسكندرية لإنجاز بعض المهام في القنصلية.

ابتسمت وساد صمت لحظة كأنها دهر

ماذا تدرسين ؟ سألني ربما محاولة منه لكسر الصمت

طب أسنان ، أجبته

رائع ،ربما سأحتاجك يوما لإصلاح أسناني وابتسم وكأنه يخبرني بأن لديه أروع ابتسامة وأنه لن يحتاجني ابدا كما يدعي

بالطبع يسعدني ذلك

كان اقترابه جريء ..سألني الكثير عن حياتي، ولكني وجدت نفسي أجيبه دون خوف بل كنت انتظر سؤاله القادم

اقترب القطار من المحطة أسرع من أي وقت!

لم أشعر بالوقت معك! هل تعلمي بأن أصدق الأحاديث هي التي تدور بين المسافرين.. ربما لأن رؤية شخص لا تعرفه لوقت قصير مؤقت يجعلك تشعر بالراحة أكثر في الكلام معه،لابد من أنك محظوظة لأن لديك تلك الفرصة كل أسبوع!

شعرت بالغضب قليلا لما قال ولا أعرف أي جزء أثار غضبي أكثر، أني شخص مؤقت أم أني لدي الفرصة كل اسبوع للتحدث الى شخص لا أعرفه!

حاولت أن أجيبه دون أن أظهر غضبي:

قد تكون محق! ولكن التعرف الى أناس جديدة ليس من اهتمامتي فأنا قلما ما اتحدث الى راكب بجواري..

شعرت بخجله ثم أجابني بصوت رقيق وكأنه يحاول تهدئتي ربما شعر بغضبي:

أعتذر إن كنت أقحمت نفسي على الحديث معك! أما بخصوص التعرف إلى أناس جديدة فأعتقد أنه لشئ ممتع كما أنه يزيد من خبرتك في الحياة ومع الوقت يسمح لك بقراءة الأشخاص بشكل أسهل لقد تعلمت ذلك من طبيعة عملي!

أجبته محاولة تلطفه الحوار:

لم أقصد أنك أقحمت نفسك إطلاقا بالعكس أنت تبدو شخص لطيف وأنا سعيدة بالتعرف عليك ولكن لا تسير الأمور هكذا دائما..

كيف لك إن تعرفي إذا لم تمنحي نفسك الفرصة، هناك أشياء كثيرة في الحياة تغلقي عينيك عنها !

أجابني وهو ينظر مباشرة في عيني وكأنه يقرأني أو أنه يعرفني بالفعل ولا أدري لماذا شعرت بالخوف قليلا ربما لأني لم أمنح أحد تلك المساحة في الحديث معي من قبل..

لا أعلم ولكني دوما ما أشعر إن الناس قد تمنحنا الكثير من الوجع لذلك أحاول دائما إن أحدد دائرة علاقتي مع كل من حولي وأشعر بالكثير من الراحة في عزلتي ..باختصار "الجحيم هو الآخر" كما قال الفيلسوف جون سارتر

تعجبت نفسي من ردي عليه لم أكن بمثل هذا الصدق عن ما يدور في قلبي مع أحد حتى مع نفسي وكأنه قد نومني مغناطيسيا ففتحت قلبي على مصراعيه..

سارة..هذا ليس صحيح ، نحن جزء من الناس الذي نتحدث عنهم دائما بأنهم سبب أوجاعنا ..ليس هناك ملائكة وشياطين على الأرض، بداخل كل منا فطرة الخير وبذرة الشر، قد تنمو تلك البذرة فتضغي أحيانا ولكن تظل الفطرة بداخلنا هي الخير،،هل تعلمي ماذا كان رد ابن سينا حين سأل عن سبب وجود الشر في العالم؟ (ما كان منزهًا عن كل شر لن يكون مخلوقًا بل خالقًا، أما العالم المادي فلا مفر إلا أن يكون ناقصًا قابلًا إلى أن يُساكنه الشر)

وصل القطار قبل أن أجيبه وصراحة القول لم أكن لأعلم بماذا أجيبه فهو يبدو إن لديه حجة قوية لكل شئ ! ولم أكن مستعدة للخوض في معركة عن فلسفة الخير والشر!

ها قد وصلنا، هذا الكارت به أرقامي أن احتجتي شيء

سارة لا تترددي أن تحدثيني أي وقت ،من الصعب الحصول على أصدقاء خاصة بعد الثلاثين!

قالها شادى بابتسامة عذبة..

قلت لنفسي (يالك من جذاب كاذب)!

أخذت الكارت بأبتسامة و أجبته :بالتأكيد من الممتع مصادقة الدبلوماسيين فهم لديهم كل مفاتيح الكلمات

تقصدي يجيدون الكذب قالها ثم ضحك

لا لم أقصد فقد سعدت حقا بالحديث معك..

قلتها بارتباك ملحوظ

أمزح معك اتمني لكِ يوم رائع وغادر مسرعا نحو الباب

جلست للحظة قبل أن أدرك أني لابد أن أغادر أنا أيضا!

• • •

يقال أن السحر نوعان أبيض وأسود، السحر الأبيض الذي يستعمله الشخص للاستفادة من قدرته في الخير، والسحر الأسود، الذي يشتمل مجموعة من الطقوس والطلاسم لإخضاع القوى الشريرة والغامضة،

فأي نوع من السحر أنت !

فأنا لم أشعل الشموع وناديتك من أقصي الأرض!

ولم أصنع تعويذة و أحرقت أسمك في رسمة قلب!

قد يحتاج السحر دقائق كي يبدأ وعمر كي ينتهي..وها هو سحرك قد بدأ أسرع مما توقعت..

أتذكر تلك الليلة بعد لقاؤنا الأول، كانت عيناك تحاصرني في غرفتي، أغمضت عيني لأهرب إلى النوم ولكن صوتك ظل يتردد في أذني كلحن لا ينقطع، شعرت بلمسة يدك ، شممت عطرك في وسادتي! أحقا يمكن أن تكون هنا معي!

كان وجودك قوي أقرب الى الواقع وكأنه جزء موجود بالفعل في حياتي و لكني لم أدركه من قبل

كل شئ في الغرفة كان له أثرك .. ترى أي نوع من الرجال أنت ؟ كي تقتحم عزلتي وتحطم جدران صمتي ..كي تخرجني من شرنقتي ..كي ينبض لك قلبي ..هذا العضو الصغير الذي قد تناسيت وجوده في جسدي !

تلك الليلة لم يكن النوم أمر سهل ..بعد عدة محاولات رأيتك من جديد في قلعة ضخمة وبالرغم من روعة تصميمها ولكنها كانت تبدو مهجورة منذ قرون .. يحيط بها الظلام من جميع الاتجاهات ..

يرأف بها القمر فيلقي بظلاله عليها ..تظهر ضبابية وسط الجبال تماما كصورتك في عقلي الآن

اقتربت عندما لمحتك تبتسم لي في تلك النافذة أعلي قمتها ..اقتربت أكثر نحو البوابة حين سمعت صدى صوتك تناديني ..فزعت وابتعدت قليلا حين رأيت العناكب تدور حول المقبض الخشبي الكبير

نظرت فوقي الى النافذة ابحث عنك فلم تكن هناك ..اهتزت الأرض فجأة من تحت قدمي ..ركضت كثيرا ولم أدري إلى اين اتجه ..استيقظت على صوت صرختي ..نظرت الى الغرفة في فزع وقلبي ينبض بقوة.. كانت الساعة الثالثة صباحا ..شعرت بالكثير من اليأس فها قد عادت الكوابيس تراودني من جديد ولكن بشكل أسوأ من ذي قبل..

لم أستطع النوم مجددا تلك الليلة ولا أدري كم مر من الوقت حتى

أشرقت الشمس، وأصبح بأمكاني الهرب وسط الدفاتر والطلبة وصخب الحياة.

ذهبت للجامعة بعد ليلة طويلة و للحظة شعرت بحماقتي وظللت أردد لنفسي انه مجرد عابر وأن لا شئ يستحق كل هذا الأهتمام..

بعد الانتهاء من المحاضرات والمرضى، وقفت بالخارج انتظر تاكسي وأنا منهكة من شدة التعب ،حتى لمحت رجل من بعيد يرتدي بدلة سوداء ونظارة شمسية داكنة بالرغم من أن الشمس كانت مختبئة خلف السحاب.

تسمرت في مكاني لحظة، هل يمكن أن أكن قد وصلت لهذه الحالة من الهذيان !

أقترب أكثر نحوي! انه هو .. شادي

شعرت بضربات قلبي تتسارع ومن جديد توقف كل شئ حولي

أصوات السيارات، صخب الشارع، أحاديث الطلاب

كيف لحضوره أن يوقف كل مظاهر الحياة من حولي ويبقي هو أحساسي الوحيد بالبقاء!

أقترب مني أكثر و بابتسامته الهادئة القادرة علي قلب موازين الكون دون رفة عين : سارة ! صدفة غريبة !

أجبته وقد ابتلعت كذبته بفرحة خفية:

أهلا شادي، حقا صدفة غريبة جدا !

كنت أبحث عن مطعم بالجوار رشحه لي صديق، أتمني لو نتناول الغذاء سويا اذا لم يكن لديكِ مانع

سكت لبرهة ثم أجبته وقد نسيت إحساس التعب:

لا مانع فأنا جائعة بالفعل..

مضينا سويا وكان بداخلي أحساس غريب، أحساس لطالما بغطت زميلاتي عليه في صغري، حين كان ينتظرهم أحد من أهلهم عند انتهاء اليوم الدراسي، ذلك الإحساس بالانتماء لشخص ما .. شخص ما يترقب ميعاد خروجك .. شخص ما يبحث عن وجهك وسط الحشود ..شخص ما في انتظارك !

يقول نزار قباني:

عند اللقاء الأول ،،

لا تستمع لأي أغنية، ولا تضع أي عطر، وإياك أن تحب المكان كثيرا، ولا تسأل عن السبب...

وقد عرفت السبب !

• • •

اتذكر ابن القيم حين قسم الأرواح إلى أرواح معذبة وأرواح منعمة، الأرواح المعذبة لا تلتقي على عكس الارواح المنعمة التي تبحث عن بعضها في العالم الآخر !

أعتقد أن الأمر مختلف في الحياة، فالأرواح المعذبة هي التي تبحث عن بعضها لتجد راحتها، لطالما آمنت بأن هناك بُعد أخر تتحرك به أرواحنا فتلتقي قبل أجسادنا ،

ربما التقينا من قبل !

كان اختياره للمطعم رائع، أو اختيار صديقه كما يدّعي ،كان في الدور الثالث، والبحر أمامنا كمرآة تعكس شغفي وارتباكي، ، كانت الشمس على وشك الغروب و أسراب الطيور تحلق فوقنا.

وعازف البيانو يعزف أغنية فيروز (بديت القصة في أول شتا، تحت الشتا حبوا بعضن)!

هنالك إشارات خفية لا نراها وربما لا ندركها في وقتها، ولكنها

كحروف ينثرها القدر في كل درب نخطوه فإذا اقتربنا من النهاية تتشابك الحروف لتصنع كلمة بها حل اللغز..

شكرا على قبول دعوتي.

قالها شادى بابتسامة شعرت صدقها

شكرا لك، اختيار صديقك جيد !

فعلا، رائحة البحر هنا تذكرني بشواطئ طنجة بالمغرب، نفس البحر

ولكن كل شئ مختلف،

أحسست بشجن خفيّ في صوته !

الم تعتاد الحياة هنا بعد؟ سألته

الإنسان كائن قادر على أن يتعود كل شيء، يقول دوستويفسكي ولكن حنيني للوطن لا يفارقني، لم أزر المغرب منذ أكثر من عامين تقريبا، وأنتِ إلى أين يحملك الحنين؟ سألني شادي

حنيني مختلف عنك، فأنا أحن لحياة لم أعشها بعد!

نظر طويلا في عيني وكأنه يحاول قراءة أعماقي كان في عينيه الكثير، الكثير من الغموض .. الحزن..الدفئ ..وكنت أود لو أسأله أن كنا التقينا من قبل في عالم أخر ! عالم كنا ننتمي به لبعض.. سألته عن حياته في المغرب ،، شعرت به ارتبك قليلا ثم بدأ الحديث؛

المغرب بلد رائع، لقد زرت الكثير من البلدان ولكن المغرب كان

له دوما الأثر الأكبر في قلبي، احيانا اشعر بأن هناك سحر ما يلقي علينا حين نولد ليجعل الوطن جزء منا لا يختفي مهما ابتعدنا عنه،، خاصة وقت الموت نشعر وكأن تراب الوطن هو الوحيد القادر علي أن يحتوينا، ربما سمعتِ كثيرا عن مهاجرين قضوا حياتهم بأكملها في دول أوروبية ولكنهم دوما يتمنوا أن يدفنوا بأوطانهم،، وكأنهم يخشوا أن تظل أرواحهم مهاجرة مثلهم بعد الموت ولا تري الوطن ابدا..

أنت محق شادي، لكني ربما لا أفهم كثيرا ما تعني لأني لم أغادر مصر قط

ألم تحلمي يوما بزيارة أي بلد آخر ؟ تكتشفي ما يدور حولك في العالم؟ سألني شادي

بالطبع تمنيت ذلك ولكن لم يكن هناك فرصة ولم أعلم أي البلدان تستحق الرحيل إليها..

لا يوجد بلد لا يستحق الزيارة، لكل بلد أسراره الخاصة وجماله الخاص حتى أفقر دول العالم تستحق الزيارة..

هل عمرك وقعت في الحب؟ سألته في خجل

فوجئ من سؤالي و سرح قليلا قبل أن يجيبني؛

نحن دوما في حالة حب، حتى وأن لم يكن هناك من يبادلنا هذا الحب، عندما نستمع لأغنية عاطفية عندما نقرأ رواية رومانسية، كل شئ يملؤه الأحساس يلمسنا من الداخل فحتي الذين يدعون عدم إيمانهم بالحب هم أكثر الناس حاجة إليه، هنالك نقطة هشة في كل واحد منا تقوي بالحب وتتمزق بالفراق،،

وهل وجدت من يبادلك هذا الحب يوما؟ حاولت أن احاصره أكثر بسؤالي حتى لا يهرب تلك المرة

ضحك كثيرا ثم قال لي:

كم من الصعب أن تلهي امرأة عن ما يدور في ذهنها، نعم سارة، كانت هناك فتاة في المغرب تعرفت إليها في ظروف سيئة، كان كل منا هارب من واقعه كغريق يلتمس من ينقذه تشبث كل منا في قشة الآخر، لم نعلم أن أوزاننا كانت أثقل من أن تنقذها قشة في بحر الحياة،،

شعرت بالغيرة كثيرا لما قاله،

ومن جديد خيم الصمت ! نفس الصمت الذي شعرت به أول مرة في القطار، لا صوت للبيانو، لا صوت الزبائن، فقط صوته يدوي في المكان، فقط أنا وهو وكأننا نسبح فوق سحابة بعيدا في السماء!

سارة!! جاءني صوته وكأنه صدى من أعلى جبل

أنتِ بخير؟ سألني بدهشة

نعم فقط سرحت قليلا أسفة

فيم سرحتِ؟

حاولت تغيير الموضوع فحدثته عن أمر آخر لأغير مسار الحوار إلى ضفة أخرى تماما؛

هناك أمر غريب شادي يحدث معي لم أحدث به أحد من قبل..

أشعر دوما بأن هناك أحد ما يراقبني في شقتي، أحساس غامض

ومخيف، أحيانا اسمع صوت المياه في الحمام أثناء نومي أو تراودني كوابيس مزعجة أني عاجزة عن الحركة أو أني أهرب من شبح ما، أصبح الموضوع مزعج مؤخرا..طوال الوقت أشعر إن هناك أحد معي لا أدري عنه شئ ولكن لا يوجد شئ مادي لتفسير الأمر!

و لماذا لم تحدثي به أحد من قبل؟ سألني شادي وفي عينيه الكثير من علامات الاستفهام

لاني اخشي ان يروني قد فقدت عقلي، عزلتي كافية لتخبرهم بأني لست بخير ! هل تؤمن شادي بوجود الأشباح؟ سألته

ذبلت عينيه فجأة كأنه شخص لم ينم منذ إيام، وجهه أصبح شاحب كثيرا ربما الطقس ازداد برودة فجأة

ما قصدك بالأشباح سارة ؟ هنالك الكثير من العوالم ربما لا تدري عنها،، هنالك عوالم للشياطين والملائكة، عوالم للأموات والأحياء وكلها عوالم متداخلة بشكل معقد، قد ننتقل من عالم الى آخر دون أن ندري أو قد ينتقل الينا من عالم أخر ما لا نعرفه أو نراه !! أجبني شادي

لقد أخفتني أكثر، أجبته بابتسامة مفتعلة

لا تخافي سارة، ليس بالضرورة ما لا نعرفه يخيفنا ،،احيانا ما نعرفه يخيفنا أكثر

كانت عينيه تزداد ذبول

تبدو متعب شادي، هل أنت بخير ؟ سألته في قلق

اسف ولكني متعب قليلا، لابد وان ارحل الان

ولكنك لم تلمس طبقك ! ألست جائع ؟ سألته بدهشة

لا يهم، فأنا كثيرا ما أنسى أكل أجابني بإبتسامة غامضة

مد يده ليودعني فشعرت للحظة بدوار خفيّ وكأنه خدرني بيده!

سأراكِ غدا، سألني

ربما، لا أدري ! أجبته دون أن أنظر إلى عينه فكذب الكلمات تكشفه العيون دون جهد

رحل مسرعا و بداخلي مشاعر كثيرة متداخلة، إحساس بالسعادة يتخلله الخوف، إحساس بالرغبة في رؤيته كثيرا و إحساس بالهرب بعيدا عنه..ذاك الصراع بين ما نحتاج إليه وبين ما اعتدنا عليه

وكأنك تبدل جلدك لتصبح إنسان آخر لا تعرف عنه شئ..تفتح قلبك لعالم لا تستشعر امانه بعد ..تحرر روحك في رحلة بحث عن السعادة في عالم ممتلئ بالمخاطر وكأنك طفل يحبو أولى خطواته في حذر !

رجعت غرفتي تلك الليلة ورغم شدة تعبي لم أستطع النوم سريعا، حاولت أن أغفو فإذا بي في مكان غامض أشبه بالسيرك، خيمة كبيرة ملونة بالأحمر والأصفر وكان هو هناك يرتدي زيّ الساحر ،أقترب مني و حملني برفق فوق دوائر معلقة في السقف على ارتفاع هائل لها شكل يشبه السحاب ترتفع في الهواء وتدور دورة كاملة حول المكان وهو يقبلني بقوة ويمسك إيدي كان هناك شعاع من الضوء يتحرك خلفنا في كل دوران فإذا بي أرى ظلال على الجدران و كأنها ظلال لوجوه أناس مظلمة خارج الخيمة تشاهدنا في صمت !

وفجأة شعرت بسقوطي فاستيقظت فزعة وجدت وسادتي مبللة من شدة العرق رغم برودة الطقس وشممت عطره من جديد في غرفتي وكأنه هنا معي !

حاولت أن أنام مرة أخري ولكني لبثت فالسرير حتى شرقت الشمس.

• • •

أكثر ما يجذب الأنثى في الرجل هو الغموض..

أن تكون شخص عادي وسط مليارات البشر لا شك بأنه شئ ملل، أن تكون حياتك صفحة بيضاء يمكن لعابر سبيل أن يقرؤها فلن يثير فضوله قراءتها، كم من الرجال على هذا الكوكب يحملون نفس الصفات ..نفس الاهتمامات، آخر موديل سيارة .. نتيجة المباراة، أو قد يختلفون في رؤيتهم للأنثي فبعضهم قد يحب شعرها قصير أو طويل، نحيفة أو ممتلئة !نظرتهم للحياة قد لا تتعدى أصابع أقدامهم

قليلون من هم شادي ..

شادي.. كان أشبه بـ أحجية، لا تعرف ابدا بدايتها، أو كيف يتم ترتيبها للحصول على صورة واضحة ! تلك المتاهة التي يحاول الفأر أن يصل إلى الجبن فيسلك كل الطرق ! كل شئ به يحمل علامة استفهام تستفز عقلك لتبحث عن أجابة ولا أدري لماذا أخذت على عاتقي فك

شفرات اللغز.

لم يشك الفأر أن الجبن قد يكون في المصيدة !

كان في انتظاري اليوم التالي الساعة الثالثة عصرا، تري كم من الوقت انتظر حتى يراني أم أنه يعرف موعد خروجي بالفعل، ابتسمت له واتجهنا سويا نحو نفس المطعم، لم تكن صدفة تلك المرة ولم يكن لقاء متفق، فقط مضينا سويا دون أن اسأل عن شئ..

كنت أخشي أن لا أراكِ اليوم، قال شادي بصوت دافئ

و ماذا أن لم تراني، لم تعتاد رؤيتي بعد، أجبته

أود أن اعتاد رؤيتك، فهناك أحساس غريب بالسلام معكِ

ولكن التعود يفقدنا الأحساس الأول، الأشياء التي نعتدها تصبح أمور مسلمّة لا نراها مع الوقت

هذا أن كان التعود هو الرابط الوحيد بيننا وبين الأشياء تلك، ولكن بعض التعود إدمان من نوع أخر !

هل تقصد أننا قد نعتاد أشياء لا نحبها لمجرد فكرة التكرار؟ سألته

بالطبع! فالمعُتقل يعتاد السجن حتى أنه لا يستطيع العودة لحياته الطبيعية، لا يعني هذا أنه أحب حياة السجن بالفعل! كالحال في شقتك، لقد أعتدت عليها رغم ما يخيفك بها

أنت محق ولكن مؤخرا قد ازدادت الكوابيس كثيرا أصبح الأمر مزعج للغاية ،

الكوابيس سارة ليس لها علاقة بالشقة، تلك الكوابيس تخرج من رأسك، هناك شئ تخشيه ليس موجود حولك ولكنه بداخلك، أجبني شادي

لا أدري ولكن أحيانا أري تلك الكوابيس ملموسة بشكل مخيف وكأنها حقيقة، أنا دوما أفتقد أحساس الامان، صعب أن تشعر بالأمان وقد اعتدت أن تواجه العالم لوحدك وقد اعتدت ذلك منذ صغري ،،

أمسك بيدي وكانت يده باردة للغاية ولكن عيناه دافئة كعادته، همس لي بصوت رقيق؛

أنا بجوارك سارة، أنا معكِ في كل مكان

ارتبكت قليلا، كان رأسي مملوء بالأسئلة وبالغيرة، حاولت أن اطمئن نفسي فسألته؛

كيف انتهت قصتك مع تلك الفتاة؟

شعرت باستيائه فهو لم يتوقع سؤالي في ذلك التوقيت على الأقل ولكنه أجابني؛

هربت سارة،، بعد ما كنت معاها لأعوام لم أستطع أن أعدها شئ، لم أثق في حبي لها، هل يمكنك تجاوز هذا الأمر ..أرجوكِ !

بالطبع ! أجبته بابتسامة رغم شعوري بإني أفسدت لقاؤنا بغيرتي الحمقاء ولكنه كان رقيق للغاية، قّبل يدي وقال لي؛ منذ رأيتك وأنتِ كل عالمي!

منذ أن رأيتني في القطار؟ سألته بابتسامة

بل من قبل ذلك بكثير، أجابني وكأنه يخبرني لغز ما!

منذ متى؟ سألته

منذ لم يكن اللقاء اختيار

لا أفهم شادي ماذا تقصد؟

لا أدري لماذا تهتم النساء دائما بالتواريخ..تحتفظ بتاريخ أول كلمة أول قبلة ..نحن من نصنع الأرقام سارة..اذا كنت أحببتك منذ ثانية أو منذ قرن فماذا يهم مادمت أحبك الآن

لأن علماء النفس يزعمون أن الحب يختفي بعد ثلاثة سنوات..فهل أنا لازالت في منطقة الامان؟ أجبته ساخرة

.الحب المشروط لا يعد حب ..الحب المقيد بالأرقام

والأماكن لن يعيش حتى الثلاث سنوات

لا أعرف كم مضى من الوقت، كان صوته وحده كافي بأن يفقدني الأحساس بالزمن والمكان، كانت عينيه تحملني لأقصى الأرض في رحلة أشبه بالحلم ..

كنا نلتقي بعدها كل يوم في نفس المكان بعد خروجي من الجامعة، نتحدث كثيرا عن كل شئ وأي شئ، كنت أتساقط فيه سقوط حر

مسرعة نحو قاع لا أدري عنه شئ، أغمضت عيني وفتحت ذراعي لعالمه .. عالم شادي!

• • •

أحيانا نهرب عن أشياء نحبها، أشياء نود الاحتفاظ بها، ولكننا لا نملك مكان لها بداخلنا، احيانا نهرب حتى من أنفسنا فالهرب لا يعني بالضرورة الرفض ربما يعني الضعف أو انك لست مستعد بعد !

ولكن الهروب من المكان لا يكفي ما دمنا نحتفظ بذاكرتنا لن ينجح هروب الجسد في النجاة!

ليلة شتاء باردة من ليالي الأسكندرية حيث تغرق الأمطار الشوارع، تغسل الأرصفة، تمحو أثر الأقدام اللاهثة خلف اللقاء

مساء يوم الأربعاء التقينا أنا وشادي في ملهي أحد الفنادق كان يرتدي الأسود كعادته، اقترب مني وهمس بصوت رجولي دافئ

كم أنتِ جميلة اليوم!

فقط اليوم! أجبته بضحكة ساخرة

لا أنتِ دوما جميلة ولكنك اليوم تبدين كزهرة بيلسان !

و لماذا البيلسان؟ سألته بمكر أنثي تلتمس المزيد من الغزل

ردائك الأبيض.. شعرك الأسود المنسدل على كتفك .. براءة عينيكِ

كل شئ بكِ يذكرني بنقاء البيلسان .

كانت تُعزف أغنية عالمسرح :

يوم التقينا،

تجمدت ...حبست أنفاسي..

من البداية

كنت أعرف أنني وجدت منزلاً لقلبي

كيف أحب وأنا أخشى السقوط

و لكن حين أراك وحيدا؟

كل شكوكي تتلاشى

حبيبي لا تخاف أنا أحببتك

لألف سنة

و سأحبك لألف اخرى!

مد يده ودعاني لنرقص،

لأول مرة نقترب لهذا الحد، يديه تحتضن خصري، احتضنته بذراعي، شعرت بنبضات قلبه مسرعة، شعرت بأنفاسه علي شعري، بعطره ، ببريق عينيه!

همس في أذني ؛ أي جزء من العالم أنتِ

ضحكت قائلة ؛ نفس عالمك أيها الدبلوماسي الغامض

بل أنتِ عالم أخر، عالم لا يحتمل الشك

لم افهم كلماته، عانقته أقرب لجسدي شعرت به يرتجف قليلا

وددت لو يلتحم جسدي وسط ضلوعه حتى لا يشعر أحدنا بالخوف

، شعرت و كأن الأرض أنكمشت حتى صارت ذلك المسرح الذي نتلامس عليه لأول مرة!

صوت الموسيقى تتحدث بلغة الحياة

تلك اللغة التي لا تعرفها سوى الفنون التي تلمس قلوبنا حتى الأعماق، فنحلق في فضاء واسع حتي وان ما زالت أقدامنا تلمس الأرض

كنت أذوب كجليد أشرقت عليه الشمس في نهار صيف..

كنت وكنت وكنت... حتى وجدت بين ذراعي لا شئ!

فراغ ..

لا ادري متى وكيف !

كل شئ حولي تلاشى فجأة ..رأيت نفسي وحدي عالمسرح، نظرت

حولي كثيرا، بحثت عنه في كل مكان ..اتجهت للطاولة التي كنا نجلس عليها فلم أجد مفاتيحه أو هاتفه ..أمسكت هاتفي بيد مرتعشة حاولت الاتصال به ولكن هاتفه مغلق!

جلست وحدي في حالة من الذهول والخوف لا أعرف إن كنت أحلم أم أن شيء أصاب عقلي

كيف تحول كل شيء الى لا شئ

هل تحبي طلب شئ سيدتي؟ جاءني صوت النادل من خلفي ففزعت أكثر!

لا لا شئ شكرا أجبته بصوت مخنوق

مهلا انتظر ! هل رأيت السيد الذي كان بصحبتي منذ قليل ؟ سألته

أعتذر سيدتي فقد استلمت مناوبتي من زميلي منذ قليل ولم أراه.

غادرت المكان و قدماي لا تقوى علي السير وكأنني سقطت من أعلي السماء الى قاع الارض

• • •

ليس النوم أفضل وصفة للهروب، أحيانا ما يطاردنا في أحلامنا قد يكون أخطر من ما نهرب منه في الواقع، بل أحيانا يكون الحلم هو الواقع ولكن في صورة أوضح، أقبح، أعمق..

وكما نفقد السيطرة على واقعنا ..نفقدها في أحلامنا ! فمن منا لم يحلم يوما أنه سقط من طابق عالي أو أنه يحاول النجاة من أمواج البحر الهائج أو أن شخص ما يطارده !

كلها أحلام حاصرتنا في محاولة فاشلة للهروب إلى النوم ..

عدت الى غرفتي تلك الليلة بعدما غادرت الملهي في حالة صمت أشبه بالصدمة لم أكن أدري الى اين اتجه ! ظللت أبحث عنه في وجوه المارة

حاولت الاتصال به ربما ألف مرة، كنت في حالة من الهذيان وكأني في حالة سُكر !

خلدت الى سريري، تمنيت لو أبكي و لكن لم أستطع ..حاولت النوم!

سبحت في فضاء بعيد أشبه بالسماء وقت عاصفة ترابية، كنت أقاوم الرياح وهي تحاول أن تنتشلني.. كانت قدماي واقفة علي لا شئ ..كنت أري الأرض أسفل مني علي بعد أميال تبدو كحبة أرز !

ثم ظهر أمامي ببدلته السوداء ولكن دون وجه ! سمعت صوته صاخب

كم أنتِ جميلة اليوم سارة .. ظلت كلماته تتردد دون توقف

حاولت أن أركض.. حاولت أن أصرخ ولكني كنت في حالة شلل تمام!

شعرت بخوف شديد.. أغمضت عيني ووضعت يدي على أذني

حاولت الهروب بحواسي فشعرت به يحاول أن يرفع يدي من علي أذني.. بعنف

سمعت صوته من جديد يصرخ؛ لا تخافي سارة .. فقط ابقِ معي !

انتفض جسدي فوق السرير، أشعلت ضوء المصباح بجواري وظللت أنظر في الغرفة.. شممت عطره في وسادتي، شعرت بوجوده ولكن لا يوجد شئ!

شعرت بألم يدي!

حاولت أن أبكي من جديد و لكن تلك المرة بكيت كما لم أبكي من قبل..

• • •

السمع والبصر من أعظم النعم الإلهية ! ولكن كم مرة تمنينا أن لا نسمع ما سمعنا أو أن لا نري ما رأينا.. كم تمنينا أن نملك قدرة التحكم في حواسنا ! كم مرة تمنينا أن نرى بيوت مستقرة وأشجار وقت ما رأينا الهدم والتخريب ! كم مرة تمنينا أن نسمع لحن علي الكمان عندما سمعنا أصوات الشجار والتعنيف !

كم تمنيت جدتي أن أملك حواسي بدل من أن تملكني!

أسفة جدتي ولكن أحيانا أغبطك أنكِ لا تسمعي ضجيج هذا العالم...

مر أكثر من أسبوعين ولم أزر جدتي، كنت اطمئن عليها عن طريق اتصالي بجارتنا (الخالة سعاد) فهي من ترعاها في غيابي..

غادرت في القطار المتجه إلى القاهرة صباح الخميس، كنت في حالة غريبة من الحزن، كنت أري شادي في كل شئ حولي وكان بداخلي

الكثير من علامات الأستفهام !

كم أفتقده الآن..

شعرت بالطريق أطول من أي وقت وكأني مسافرة للأبد، أتذكر نظرية أينشتاين : «المدة الزمنية تختلف من شخص إلى آخر، حيث إن الساعة التي يقضيها المترجل على الطريق تكون أبطأ من الساعة التي يقضيها سائق السيارة على الطريق، وهذه الساعة بدورها أبطأ بكثير من الساعة التي يقضيها سائق الطائرة في الجو».

هل حقا الزمن يتغير وفقا للسرعة ! أم وفقا ل شعورنا بالألم .. ربما المترجل شعر أطول بالساعة لأنه أُجهد أكثر من راكب الطائرة !

فها هي الساعة التي أتألم بها الآن تبدو وكأنها دهر والساعة التي سافر بها شادي بجواري مرت كلمح البصر !

وصلت أخيرا بيت جدتي، احتضنتها بقوة وددت لو أخبرها بكل شئ ولكن خشيت قلقها عليّ أو ربما لأنها لن تفهم ما يؤلمني فأنا نفسي لا أدري!

أدور في دوامة من المشاعر تصيبني بالدوار وفقدان الاتزان !

جلسنا سويا لتناول الغذاء نظرت كثيرا اليّ في شك وقلق ثم أشارت لي أن كنت بخير ؟

نعم جدتي، فقط متعبة قليلا من الدراسة، أجبتها بالاشارة وفكرت للحظة

أجسادنا تستطيع الكذب أيضا !

بعد الغذاء زارتنا الخالة سعاد، فرحت عند رؤيتي

كانت تهتم لأمري كثيرا منذ صغري، كنت أشعر دوما بالعطف في عينيها، كانت هي الوحيدة التي تبعث الحياة في منزلنا بزيارتها لنا وكنت أحمد الله علي وجودها بجوار جدتي وأنا في الجامعة،

تبدين شاحبة صغيرتي، لابد وأن الدراسة مجهدة؟ سألتني الخالة سعاد وهي تتحسس وجهي

لا تقلقي خالة قريبا سوف أحصل علي أجازة قصيرة في نهاية الترم، أجبتها وقلت في نفسي كم أحتاج أجازة حقا من كل شئ

اعتذرت لها بأني متعبة من السفر و احتاج أن أنام ،

ذهبت الي غرفتي، ها هي شجرة الأحلام، أشعلت الضوء حولها وظللت أنظر إليها .. لا أدري أن كانت خذلتني أم اني من خذلتها!

أمسكت بالقلم وحاولت الكتابة:

رحلت سريعا

كسحابة صيف

كغفوة عين

كوميض برق

حتى سألت نفسي احيانا

أكنت حقا هنا؟

ام اني صنعتك من وحي خيالي

رحلت سريعا

فلا شعرت ببرودة انامك فالشتاء

ولا امطرت علينا فالطريق السماء

ولا تلحفنا بالشوق في ليلة برد

رحلت سريعا

فلا رأيت البحر معك في ليلة صيف

ولا راقصتني على أغنيتي المفضلة

ولا عرفت اي الالوان تحب

ولا اهديتك باقة زهور ورسالة حب

رحلت سريعا

فلم احتفل معك بعام جديد

ولم نكتب أحلامنا في ظهر الغيب

ولم ننتظر سويا منتصف الليل

رحلت سريعا

فلم أغضب منك

ولم تصالحني بكلمة طيبة

ولم تطفئ معي شمعة عيد ميلادي

ولم تهديني عطر الياسمين وتطوق ذراعي

رحلت سريعا

ولم اعرف ان كنت مازلت تحبها

وكيف تمنيت زفافك بها

و اي الاسماء لاولادك اخترت

رحلت سريعا

فلم اخبرك بعد عن سر هذياني بك

وكيف القتني الحياة على شطآنك

وكيف تمنيت الغرق فيك دون خوف

رحلت سريعا

فلم ترى بي الجانب المجنون و الجانب المهزوم

ولم تدرك الحرب بعد في اعماقي

رحلت سريعا

فلم اقبلك قبلة الوداع

ولم اعانقك

ولم ارجوك البقاء

رحلت سريعا

وانتهي الحلم بك

ولم تدرك كم اشتقت اليك

واني لم استيقظ بعد..

• • •

الوحدة هي ذاك الفراغ الذي لا يملأه سوى شخص واحد

لطالما أعتقدت أني وحيدة دون أهل أو أصدقاء ولكن الوحدة التي شعرت بها بعد اختفاء شادي كانت مختلفة ! أن تشعر بالوحدة

لأن لا أحد يبادلك نفس الأفكار شئ وأن تفقد أحد ملأ كل الفراغات بداخلك شئ أخر ! فأنت لا تدرك كم الفراغ بداخلك سوي بعد امتلائه !

قضيت مع جدتي عطلة نهاية الأسبوع وكنت أري في عينيها كم هي فرحة بأني معها وكم هي قلقة من صمتي ! كنت أرى الكثير من الأسئلة التي لا تقوى على سؤلها.

ودعتها صباح السبت، قبلت جبينها ويديها كنت أشعر بحاجة شديدة لها، عانقتها كأني أخر مرة أراها مما زاد من قلقها بأني لست بخير .

اتجهت إلى محطة القطار.. زحام وصخب، أناس مودعة وأناس

تنتظر وبائع الجرائد ينادي ،وددت لو سألته أن كان لا يزال أحد يشتري الجريدة في زمن أصبح الهاتف هو بوابتك الوحيدة للعالم!

في محطة القطار كل يبكي على ليلاه !

وأنا أبكيك في صمت .. شعرت فجأة بطنين شديد في أذني ..سمعت صوتك وسط الزحام .. كان ل بائع الجرائد صوتك .. ل صوت القطار غضبك ،، مئات البدلات السوداء هنا وهناك !

كيف لك أن تحاصرني في محطة القطار؟ أمن العدل أن أراك حتى في الأماكن التي لم نلتقي بها يوما ؟

التحقت بالقطار وحاولت مجددا الأتصال بك ولكن تلك الحمقاء أجبتني بأن هاتفك مغلق ! كم كرهت صوتها وكأنها عشيقتك ..

وضعت سماعات الأذن وحاولت أن أستمع الى الراديو.. كانت فيروز تغني (أنا وشادي غنينا سوا، لعبنا على التلج ركبنا بالهوا) حقا !

ما بين كل أغاني العالم وثمانمائة أغنية لفيروز تغني (أنا وشادي)!

بدأت أؤمن بقانون الجذب فكل ما حولي يدور حول نفس الشئ ...، لابد من أني أرسلت كل طاقتي للعالم فكان الرد أقوي، كان شادي في كل شئ!

وصلت الأسكندرية واتجهت نحو الجامعة ولا أعرف كيف انتهى اليوم الدراسي كان عقلي مشتت أكثر من أي وقت ..

اتجهت نحو البوابة فإذا به هناك ! نفس البدلة السوداء، نفس هيئته الواثقة رغم هالة الضباب التي كانت تحيط به

ربما كان ينتظرني كما كان ينتظرني من قبل.. في البداية اعتقدت بأن خيالي خدعني للمرة الألف ولكن تلك المرة كان هو.. شادي

• • •

الظل هو ذلك الظلام الذي يعجز الضوء أن يصل إليه لأن أجسادنا لا تسمح بمروره... ولكن ماذا عن خيالنا؟ هل يعجز الضوء أن يعبر من خلاله فنري أحلامنا مجسمة على شكل ظلال تحاصرنا في واقعنا!!

هل الملائكة والشياطين تسمح بعبور الضوء من خلالها لذلك لا نراها !! وهل بالضرورة لكل ظل أصل ؟ أم أن هناك ظلال تخلق من لا شئ؟!

اقتربت منه و بداخلي الكثير من الأسئلة.. الغضب والأشتياق!

وددت لحظة لو عانقته وبكيت ولكني لم أفعل ..

أهلا سارة.. قلقت بشأنك هل أنتِ بخير؟ سألني شادي بصوت قلق

بخير !! كيف لك أن تتركني فجأة في الملهي تلك الليلة؟؟ سألته بغضب حاولت بصعوبة اخفاءه

أي ملهي سارة ؟ أنا لم أراكِ منذ الثلاثاء الماضي عندما غادرتِ المطعم وأنتِ متعبة وحاولت أكثر من مرة الاتصال بك ولكن هاتفك كان مغلق دائما!! أجبني شادي بدهشة

تسمرت للحظة ولم أقوي عالنطق شعرت بدوار فجأة ثم تمالكت نفسي وسألته محاولة أن أجد أي إجابة منطقية: لماذا أذن هاتفك مغلق؟؟

سارة! أنا لم أغلق هاتفي ابدا.. كنت انتظر اتصالك أي وقت !

أمسكت بهاتفي وحاولت الاتصال به فإذا بهاتفه يرن في جيب سترته!

أرأيتي؟ قالها شادي بنفاذ صبر

صدقني .. أنا لا أفهم شئ مما يحدث !

لا عليكِ سارة، تبدين متعبة للغاية، هل تودين الذهاب الي طبيب ؟ سألني بقلق

لا تقلق سأكون بخير أجبته غير متأكدة

أفتقدك كثيرا سارة، ما رأيك أن نتنزه ع البحر قليلا ربما تشعري بتحسن ؟ سألني بإبتسامة لا يمكن رفض سؤاله بعدها أي كان !

بالطبع ! فقد افتقدتك ايضا كثيرا أجبته و أنا أشعر بنبضات قلبي تتسارع وكأنها تركض لتسبقني ..

كانت الشمس علي وشك أن تغفو في الأفق، جلسنا على صخرة

على الشاطئ، الأمواج تصطدم بها وكأنها الحياة تحاول أن تلحق بنا، كان في كل اصطدام للموج أشعر بالماء يلمس وجهي وشعري، نظرت في عينيه وسألت نفسي كيف كل هذا الهدوء في عينيه أن يحدث هذا الضجيج في قلبي ؟

أمسك يدي بقوة وهمس في أذني : سارة.. ابقِ معي ..

تذكرت تلك الليلة .. نفس الكلمات ولكن صوته تلك المرة كان أدفي وأعذب..

أنا معك شادي وسأبقى معك دوما، أجبته لأطمئنه و أطمئن معه...

اقترب مني وقبلني ...شعرت وكأن الزمن توقف وتوقفت الأرض عن الدوران وكأن بقبلته خلق لي أجنحة تقوى على الطيران!

نظرت اليه كثيرا ثم همست في أذنه: شادي .. أحبك

ابتسم لي ثم طوقني بذراعيه : أحبك سارة...

كنت بالرغم من سعادتي شاردة، لم أنس تلك الليلة، خشيت سؤاله حتى لا يشك إن هناك خطب ما في عقلي..

سارة! فيما سرحتي ؟سألني

سكت قليلا قبل أن أجيبه؛

هل يمكن أن تخدعنا عقولنا؟ أن تغير من إدراكنا لما يحيط بنا لمنحنا سعادة مؤقتة؟

نحن لا نرى الأشياء من العدم حتى وأن خدعتنا عقولنا أحيانا فلابد

من إن هناك باب ما قد فتح لنا في الخفاء هو ما أثار تلك الزوبعة! لكن لماذا تسألين؟

لا أدري، ولكن الأطباء يدعون بأن ليس هناك مرض اسمه الجنون فلماذا إذن تفقد الناس عقولها؟

الناس لا تفقد عقولها سارة، الناس ترفضها! حين لا تمنحهم السلام الكافي للعيش، تصبح الحياة ساحة معركة ،الاختيار وقتها يكون بين الحياة والعقل فأما أن تعيش معذب أو أن تضحي بعقلك..هل تشكين في حبي لكِ؟

شعرت في سؤاله بحزن خفي

لا شادى الأمر ليس كذلك، أنا فقط مشتتة كثيرا

أي كان سارة ما يراه عقلك فقد نبت من جذور الحقيقة..اتبعي حدسك وتأكدي من حبي لك!

ذهبت لغرفتي ذلك المساء كفراشة تحلق في الفضاء، لأول مرة أشعر أن للحياة مذاق شهي ،و الحب ما يفتح شهيتنا على الحياة يجعلنا دوما جوعي للمزيد ..ننتظر وقت اللقاء بلهفة شرهه ونمقت الوداع حتى إن كان وقت النوم..

نظرت في المرآة كثيرا وتساءلت كيف تراه يراني ؟ هل يراني أميرته كما في روايات الخيال، اتراه يمتلك جواد أبيض ليحملني معه الى قصر بعيد فوق التلال! أتراه بحث عن حذائي المفقود وسط نساء العالم ..

احتضنت وسادتي ونمت كطفل ليلة عيد ،،

استيقظت الساعة الثالثة صباحا على صوت غريب صوت أشبه بـ ذئب يعوي خارج نافذتي ! تجمدت مكاني وشعرت بخوف شديد حاولت أن أميز الصوت ولكنه كان يبتعد وكأنه صدى من بعيد

أشعلت المصباح بجواري فرأيت ما هو أشبه بالظلال على جدران غرفتي، ظلال على شكل أمواج تتحرك نحويِ، ارتعشت كثيرا .. اطفأت المصباح وأخفيت رأسي تحت الغطاء، ظللتَ أردد بعض الأذكار حتى طلع النهار...

• • •

تتغير شكل الأشكال من حولنا ب تغّير رؤيتنا لها

فقد تمر كل يوم على نفس الطريق و لا تلاحظ بائع الورد و قد تمر يوما ما فلا ترى سواه ! تتغير شكل الأماكن حسب رؤيتنا لها فقد تري البحر يوما صديقا تخبره أسرارك وقد تراه يوما وسيلة هروب وقد تراه يوما مكان مخيف يبتلع أحلامك ! بعض الأماكن عندما تشاركها مع من تحب لا تري ابدا قبحها ..

(الجمال في عين الرائي)

حكمة قديمة!

اتجهت إلى الجامعة في اليوم التالي، كنت متعبة للغاية لأني لم أستطع النوم تلك الليلة، أثناء المحاضرة استقبلت رسالة من شادي وكأنه يشعر بي!

يقال ان الكهوف تنتزع منا التعب والطاقة السلبية ونهاها بوجه مبتسم !

أي كهوف ؟أرسلت له لأسأله.

انتظريني الساعة الرابعة عند بوابة الجامعة وسأخبرك

لم يكن لدي طاقة للتفكير في حل ذلك اللغز، دماغي مشوشة بالفعل أرسلت له أني موافقة ..

عند الساعة الرابعة كان ينتظرني بلهفة عند البوابة

أخبرني بقصة الكهوف ! سألته بمجرد رؤيته

لم أعرف أنك فضولية الى هذا الحد، أجابني وهو يضحك

هيا نذهب من هنا يوجد مكان رائع أود أن نراه سويا، أكمل حديثه

رأيت الأسكندرية كما لم اراها من قبل ! لا أدري كم مر من الوقت في السيارة ربما ساعة ونصف أو أكثر حتى شككت بأننا غادرنا الأسكندرية..

ها قد وصلنا ! قال شادي عندما وصلنا الى مكان غريب أشبه بشاطئ ولكنه مختلف تماما عن شاطئ الأسكندرية ! كان هناك مكان أشبه بالمغارة وكانت الشمس علي وشك الغروب

هنا ! ما هذا المكان ؟ سألته

خائفة؟ سألني شادي

كيف لي أن أخاف معك ؟ أجبته

أمسك يدي ودخلنا سويا الى ما يشبه الكهف، كان ظلام دامس فأشعلت هاتفي كي أرى أي شئ، كانت الجدران أشبه بلوحة مرسومة

من الصخور، تميل لونها إلى اللون الأبيض، سمعت فجأة صوت أشبه بالخفافيش فأمسكت في ذراع شادي في خوف، لمس شعري بحنان وطمأني ..

سألته: هل كنت هنا من قبل؟

ربما!!

بعد الكثير من المشي داخل الكهف بدأت أشعر برطوبة الهواء حتي وصلنا الي تجمع مياه أشبه ببركة صغيرة

ما رأيك ؟ سألني شادي بحماس

في ماذا تفكر ؟ سألته بحذر وأنا أعرف فيما يفكر بالفعل

المياه هنا دافئة، هيا لا تكونِ جبانة، بعض الجنون يعطي للحياة نكهة مختلفة ثم ابتسم ابتسامته الساحرة

أشعلنا هواتفنا وتركناها على الأرض لتمنحنا بعض الضوء

وبدون تفكير خلعنا ملابسنا ونزلنا إلى بركة المياه، كان الماء دافئً فعلا

اقترب مني وعانقني، أحسست بجسده وكأنه يلتحم مع جسدي كسمفونية آلات موسيقية تعزف في تجانس تام !

قبّلته ربما ألف مرة، شعرت بملوحة الماء علي شفايفه، يده علي جسدي وكأنها تمحو أثر كل ما مضي من عمري وكأني أُخلق من جديد!

أحبك كثيرا أخبرته وهو يقبلني في عنقي

أحبك سارة أخبرني بكلماته ..بجسده.. بقبلاته ..بروحه

كل شئ به قالها لي بطريقة مختلفة...

همست في أذنه؛ شادي ! هل أنا أحلم ؟

أنتِ سعيدة؟ سألني

كما لم أسعد من قبل، أجبته وأنا أتحسس وجهه

إذن، دعينا نحلم !!

ولكني خائفة من أن استيقظ، قلت له وأنا احتضنه بقوة كنت أخشي أن يختفي من جديد

لا تدعِ الخوف يتسرب الي قلبك، الخوف يحجب كل المشاعر الأخرى منَ التحرر، تمددي وانا سأضع يدي تحت ظهرك، تأكدي بأنك لن تسقطي أبدا ما دمت أنا بجوارك، أغلقي عينيكِ وعقلك، دعِ قلبك اليوم هو المسيطر

تركت جسدي يطفو فوق المياه وأغرقت خوفي وعقلي، شعرت للحظة بأني أحد جنيات البحر الهاربات وأنه قادم من أقصى الأرض لإنقاذي!

بعد ان انتهينا استلقينا على الأرض في صمت وكأننا كنا نسبح في بركة من الخمر !!

نمت نوما عميقا ربما كأهل الكهف !

استيقظت الساعة الثالثة صباحا على رنة هاتفي وجدت نفسي في سريري عارية تماما وقبل أن أفكر في شئ أمسكت الهاتف واجبت في حالة من الهلع:

اهلا خالة سعاد كيف حالك؟ جدتي بخير؟

جدتك مرضت ونقلتها المشفى، أرجو أن تحضري في أسرع وقت ردت الخالة سعاد بصوت مخنوق

أغلقت الهاتف وأنا في حالة صدمة.. خوف و شلل تام !

• • •

تعددت أشكال الرحيل والفراق واحد

البعض يرحل دون كلمة وداع.. دون اعتذار.. دون عناق..

والكل يرحل في مرحلة ما، شئنا أم أبينا لكل حكاية لحظة فراق

والموت وجه من أوجه الرحيل ولكنه أقساهم فهو يهدم كل أمل في اللقاء

هو آخر كلمة في الكتاب! لا كلمة بعده يمكن أن تُقرأ ولو كتبنا الاف الكلمات..

اتجهت إلي القاهرة في قطار السادسة صباحا، وجدت الخالة سعاد تنتظرني في المحطة مع ابنها كريم لابد من أنه كان أجازة في القاهرة ذلك الوقت.

خالة سعاد أرملة في اواخر الستون، لديها ابن وابنة، ابنها كريم

يعمل مهندس في أحدي دول الخليج، سافر منذ ثلاثة سنوات تقريبا وابنتها شيرين تعيش مع زوجها في إحدى الدول الأوروبية منذ خمسة سنوات

تركاها وحيدة لتتواصل معهم عبر مئات التطبيقات التكنولوجية والتي لم تكن تعرف عنها شئ!

كانت جدتي صديقتها الوحيدة بالرغم من أنها لم تكن تجيد لغة الأشارة ولكنها لم تكن تحتاج لأحد يسمع بقدر احتياجها أن تتكلم .

عانقتني بقوة مجرد ما رأتني مما زاد قلقي !

جدتي بخير؟ سألتها وأنا أخشى الأجابة

تماسكي صغيرتي! جدتك توفيت فجر اليوم .. أجبتني بصوت مخنوق

للحظة سألت نفسي ما معنى تماسكي! أن لا أصرخ .. لا أبكي.. لا أسقط

ألا نملك حتى حق البكاء في أصعب لحظات الحياة؟

هل تمت مراسم الدفن؟ سألتها وأنا أحاول التماسك كما سألتني

لا صغيرتي، لازالت في المشفي لا تقلقي كريم هنا وسيتولى أمر الإجراءات كلها..

البقاء لله سارة ! قالها كريم وهو يحاول إظهار التعاطف فهو لم تكن تربطه أي صلة بجدتي منذ فترة بعيدة

كان كريم الشاب المثالي لأي بنت، كان وسيم وبه براءة طفل لم يبلغ بعد ،أعتقد أنه لم يكن له أي علاقات في حياته، حتى عندما كان يزورنا مع والدته عندما كنا أطفال كان يخجل أن ينظر في عيني

كريم صفحة بيضاء مفتوحة للجميع أتعجب كيف لم تلطخ الحياة بسواد حبرها في صفحته شئ!

ركبت معهم السيارة واتجهنا للمشفى، نفس المشفى الذي توفي به والدي بعد الحادث ! بعض المشافي تبدو للبعض كمقبرة جماعية!

هل يمكنني رؤيتها؟ سألت الطبيب

بالطبع أجابني وهو يحاول التعاطف ايضا

وددت لو أخبرهم أنهم ليسوا بحاجة لذلك فالأمر لا يعنيهم في شيء و افتعالهم يصيبني بالتوتر أكثر !

دخلت غرفة جدتي ،كانت راقدة في سلام وعلي وجهها ابتسامة لم اراها من قبل.. أترى هل تشعر بوجودي

الآن ؟

آسفة خالة سعاد لم أقوي علي التماسك ...

بكيت على صدرها كثيرا، قبلتها في جبينها، طلبت منها أن تسامحني وأخبرتها كم أني أحبها ولكن بعض الكلمات تتأخر كثيرا فتبدو مجرد عبث..

لم يكن هناك أحد من أقاربي، كانت وحيدة في موتها كما كانت في

حياتها .. وشعرت للحظة بأن نهايتي لن تكون بعيدة عنها ربما لن تكون موجودة الخالة سعاد وقتها حتى ،،

تذكرت شادي فأرسلت له رسالة قصيرة : أحتاج إليك.. جدتى رحلت !

قام كريم بإجراءات المشفى واتجهنا لدفنها قبل المغرب تقريبا!

ظلت الخالة سعاد تحتضني طوال الطريق محاولة منها لمواساتي،،

عند الدفن وقفت متسمرا لبعض الوقت وفراغ تام في عقلي ،كنت في حالة من الإنكار

والرفض..

صرخت فجأة ... تساقطت على الأرض.. بكيت وناديت بأعلى صوت ؛ لا توقفوا ... لا هذه ليست جدتي!! هذا شادي توقفوا ...

رأيت شادي جثة في حفرة جدتي..

ظلام دامس... استيقظت في غرفتي في بيت جدتي .. سمعت صوت رجل و الخالة سعاد يتحدثان في الخارج

لا تقلقي ستكون بخير لم يكن من المفروض أن تحضر الدفن فهي تبدو حساسة ولم تحتمل الصدمة، سمعت صوت الرجل لابد من أنه الطبيب

زارتني في غرفتي، مسحت على شعري بيدها وسألتني

أنتي بخير صغيرتي؟ من شادي هذا؟

لم أقوى على النطق، بكيت في حضنها كثيرا وكأني طفلة صغيرة يلاحقها شبح في أحلامها ..

ستكونين بخير، أنتِ فتاة قوية .. سأكون بجوارك أنا وكريم أن احتجتي شئ،

أخرجت من جيبها ورقة وتركتها على وسادتي

هذه رسالة جدتك اليكِ قبل الرحيل، أقرأيها عندما تكوني مستعدة

قبلتني وغادرت...

ابنتي سارة..

عشت معكِ سنين طوال بعد وفاة والديك، كنتِ كل شئ في حياتي

رأيتك طفلة وحيدة ورأيتك شابة منطوية والأن أراكِ أمرأة ناضجة جميلة ولكنك لازالتِ تحملي الحزن في قلبك..

أعلم أن الحياة قد سلبت منكِ الكثير ولكن العمر أمامك

أحبي.. تزوجي ..وأنجبي الكثير من الأولاد

أطلقي رصاصة الحب على الوحدة

ستكونين زوجة رائعة وأم رائعة ..

أحبك ...

طويت الرسالة وفي قلبي الكثير من الألم، تري ماذا شعرت جدتي حتي كتبت لي تلك الرسالة؟ أكانت تشعر بأنها سترحل؟ أكانت ترى

الملائكة تطوف حولها ترحب بها في عالم آخر؟ تري ما سر اهتمامها بزواجي ؟ هل عرفت أمر شادي ؟

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، حاولت أن أكتب اليها لأرد على رسالتها ولكني لم أجد وسيلة لتصل كلماتي، فالورق والأقلام فقط لقاطني الحياة، لمن لديهم الوقت والفرص ليكتبوا، ولكن للأسف كما أن قاطني العالم الأخر لا يقرؤون كتابتنا هكذا الحال في الحياة، البعض يكتب لمن لا يقرأ ...

شعرت بحركة غريبة في الغرفة، بيد على كتفي ..بعطر أعرفه جيدا

شادي!! أنت هنا؟ كيف دخلت وهل الخالة سعاد رأتك ؟ قلت له وأنا أعانقه

لا تقلقي ! لم يراني أحد أنا هنا لأنك بحاجة اليا، ضمني بقوة وقّبل رأسي، بكيت علي صدره وشعرت لأول مرة بالأمان الذي حُرمت منه عمر كامل !

شادي.. أخاف أن أفقدك لقد تخيلتك مكان جدتي، أصبح خيالي يخدعني كثيرا لم أعد أعرف الفرق بين ما أتخيله وما أراه، لا أعرف ما رأيته في الملهي والكهف وفي المقبرة وحتى الآن إن كان حقيقي ام لا،

أنا متعبة شادي ،،

شعرت بيده على شعري، أمسكني من ذراعي وكأنه يحاول أن لا يدعني أسقط .. أستريحي حبيبتي لا تفكري في شيء أنا هنا بجوارك

قالها شادي وهو يحاول أن يساعدني لأستلقي على السرير

أغمضت عيني وشعرت به بجواري يمسك يدي بقوة، شعرت للحظة وكأنه يبكي حاولت أن أفتح عيني ولكني كنت أغرق في سبات عميق وعندما استيقظت كان قد رحل....

• • •

كل أنثى تحلم برجل مثالي، تشاركه أحلامها وأفكارها وسريرها.. تحلم برجل طويل.. وسيم.. ناجح .. غني.. عطوف... لا يخون.. لا يكذب!!

باختصار تحلم بإنسان آلي ! أن وجدتيه عزيزتي فاعلمي أنه لا يصلح للحب!

فالرجل المثالي يصلح لكل شئ إلا الحب!

طرقت الباب الخالة سعاد لتدعوني إلى الإفطار معهم، كان كريم لا يزال في بيت جدتي

صباح الخير سارة كيف حالك اليوم؟ سألني كريم دون أن ينظر اليِ

بخير كريم شكرا على سؤالك

أثناء الإفطار كان هناك صمت بيننا نحن الثلاثة

نظرت الي الخالة سعاد كانت عيونها منتفخة كثيرا لابد من أنها بكت أيضا امس ،

من يدعوك للتماسك هو أكثر شخص بحاجة إليه!

الي متي ستمكث في القاهرة كريم؟ سألته محاولة لكسر الصمت لم أرد أن يشعرا بأني مستاءة من وجودهم معي في المنزل .

ربما أسبوعين أو أكثر، لست أدري بعد، أجابني وهو يرتشف القهوة محاولة أخري للهروب من أن ينظر إليِ

كريم سيبقى معنا قليلا حتى يطمئن أن كل شئ بخير، قالتها الخالة سعاد

ما معنى أن كل شئ بخير ! أسيمكث معنا حتى تعود جدتي ؟ سألتها متهكمة

اذا كان وجودي غير مرغوب فيه يمكن أن ارحل سارة، قالها كريم وساد التوتر للحظات بيننا

آسفة كريم لم أقصد أنا متعبة قليلا سأعود إلى غرفتي..

تركت الطاولة و عدت إلى سريري وأنا أفكر لماذا كنت حمقاء هكذا، ربما محاولته إظهار اللطف الزائف استفزتني!

جاءت الخالة سعاد بعد قليل لتطمئن علي:

أعرف أن جدتك كانت أغلي ما في حياتك صغيرتي ولكن وجودنا

هنا محاولة لمساعدتك، لا شئ سيعوض وجودها ولكن كريم فعلا مهتم بكِ فهو يعزّك منذ كنتم أطفال.

لا أدري ماذا تحاول الخالة سعاد أن ترمي اليه !

لا بأس خالة أنا بخير ولكني سأعود للجامعة في الإيام المقبلة لدي الكثير هناك، أجبتها لاختصار الوضع

سارة، لابد أن ترتاحي قليلا فأعصابك متعبة، ما رأيك في نزهة في النيل بعد المغرب، لا تبقى محبوسة هكذا في غرفتك .

لا بأس! أجبتها لأنهي الحديث وتتركني لوحدي

بعد أن خرجت حاولت الاتصال بشادي كثيرا ولكنه اختفى من جديد !

كيف له أن يتركني هكذا في أكثر الأوقات أحتياج له ؟!

بعد المغرب كنت قد جهزت نفسي للخروج، وجدت الخالة سعاد لازالت في سرير جدتي وكريم في انتظاري في بدلة رمادية يبدو وكأنه ذاهب لعرس !

الم تجهزي بعد؟ سألت الخالة سعاد

آسفة حبيبتي ولكني متعبة، هل يمكنك الذهاب مع كريم ؟

حاولت امتصاص غضبي و أجبتها : لا بأس

• • •

الخيال هو ذلك الثقب الصغير في الواقع الذي نهرب من خلاله، الصور في الخيال تبدو مشوشة ،، مهزوزة ولكنها ملونة على عكس الواقع حيث الصور اوضح .. وأعمق ولكن ألوانها لا تتعدى الأبيض والأسود !

كريم كان جزء من الواقع !

و ان توازن بين الخيال والواقع بداخلك أشبه بالمشي على خيط رفيع

ركبت السيارة بجواره واتجهنا نحو النيل، تفاجأت بأنه قد حجز مركب صغير فالنيل !

كان أي مطعم عالنيل يكفي بالغرض ؟ أليس كذلك؟ سألت كريم وأنا أشعر أني مجبرة على الوضع بأكمله

أسف ! كنت أحاول أن تكون تجربة مميزة لتحسين مزاجك.. قالها

كريم وكان صوته مملوء باليأس

لا تعتذر كريم، أنا من يجب ان يعتذر فأنت منذ مجيئك وأنت تحاول مساعدتي، شكرا لك على كل شئ

اتجهنا نحو المركب، امسك بيدي ليساعدني على الركوب، كان يتعامل معي بلطف مبالغ وكأني قطعة من الزجاج يخشى كسرها !

جلسنا سويا ولاول مرة ينظر في عيني! كانت عيناه يملؤها الكثير من العطف والحنان، كنت أري اعجابه بي في كل تصرفاته ولكني كنت في عالم أخر،، كانت روحي تسبح في عالم شادي !

توقعت أن يسألني عنه أو عن ما حدث وقت دفن جدتي ولكنه كان ألطف من أن يزعجني بشئ..

كان الطقس بارد ومنظر النيل رائع، هربت إلى ثقب الخيال وتمنيت للحظة لو كان هو شادي..

تحدثنا كثير عن عمله في الخارج، كان خجول للغاية، مقتصد في كل اجاباته

لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ سألته

لا أدري، كان هناك بعض المحاولات من أمي ولكنها كانت تنتهي بالفشل دائما

سارة، هل ممكن أن أسألك سؤال؟

لا داعي أن تسألني سؤال قبل السؤال كريم فقط قل ما يدور في

خاطرك

ابتسم في خجل وأكمل حديثه:

أتذكرين حين كنا أطفال؟كنت أحب أن نلهو سويا، كنت أحب أن نكون معا أكثر من وجودي مع أختي شيرين، رغم هدوءك الدائم ولكنك كنتِ قريبة مني دائما

نعم أذكر، كنت تحب أن أخرج معكم للتنزه دائما، أذكر تلك المرة عندما همست لك شيرين ولكني سمعتها : هل لابد أن نأخذها معنا في كل مكان، هي غريبة أحيانا أخاف منها ! أذكر أنك خاصمتها وقتها من أجلي..

شعرت بإحراجه لا أدري لماذا تذكرت الموقف هذا دون غيره! كل محاولاتي تلك الليلة لاصطناع اللطف كانت فاشلة !

اسف سارة كنا أطفال.. قالها كريم بإبتسامة بائسة

نظر إلي طويلا ثم سألني:

ما سر حزنك سارة؟ أعلم ان جدتك كانت تعني لك الكثير ولكني أري الحزن في عينيك كشجرة متأصلة جذورها بداخلك منذ كنتِ طفلة

هل الحزن يولد معنا كريم؟ سألته

لا اعتقد، الحزن شعور ناتج من تجارب الحياة المؤلمة لما نشعر بالحزن أن كنا لا نمتلك سبب واضح؟

ألا تظن أن هناك سبب واحد واضح في العالم يستدعي الحزن؟

لابد من أنك تعيش في كوكب أخر!

أفهم قصدك سارة، هنالك الكثير من الأسباب حولنا قد تثير الحزن فينا ولكن هناك ايضا الكثير من الأسباب التي قد تنبت الفرح بنا ولكنك لا تسمحي لها بالعبور من خلالك!

هل هذا نوع من جلسات العلاج النفسي؟ سألته ساخرة

لماذا دائما تحاولي إظهار جانب ليس بكِ؟ لقد كنا دوما أصدقاء منذ الصغر، لماذا تضعي الأن حواجز بيننا .. قالها كريم بلهجة لوم محاولة منه لاستعطافي أو أن يشعرني بالذنب

أي حواجز تتحدث عنها ؟ لقد سافرت فور دخولي الجامعة ولم أراك سوى في تلك الإجازات القصيرة التي كنت تزور الخالة سعاد، ماذا تعلم عن حياتي للحكم علي بالحزن أو بغيره؟

أنا لا أحكم علي حياتك، كما أني أعلم الكثير عنك لقد كبرنا سويا، أنا أعرفك سارة جيدا منذ كنا أطفال .

ولكننا لم نعد أطفال ! لم تعد أكبر همومي ان لعبتي قد كسرت أو اني لا أريد الاستيقاظ مبكرا للمدرسة،، لقد اختلفت الحياة كثيرا كريم أصبحت امرأة تركض خلف الحياة والحياة لا تنظر خلفها حتى لو ركضت ألف عام..

بل أصبحتي امرأة جميلة ولكنك تركضين في اتجاه خاطئ ليس خلف الحياة كما تظنين ،هنالك الكثير من الأحلام في انتظارك كي تحققيها ولكنك اكتفيت بطويها في أوراق والنظر إليها!

شعرت بغضب شديد صرخت في وجهه:

كيف لك أن تدخل غرفتي وتفتش في أشيائي !!

انا اسف سارة! أعرف أن هذا ليس من حقي ولكني كنت أريد أن أقترب منكِ أن أكون جزء من أحلامك

ولماذا كل ذلك؟ التحليل النفسي لحياتي وأحلامي؟ لماذا تقتحم خصوصيتي بهذا الشكل؟قلتها وقد حاولت أن أهدأ قليلا

شعرت بتوتره وضيقه ثم قال في صوت ضعيف:

لأنك تعني لي الكثير.

تجاهلت كلماته وأمسكت بحقيبتي وأنا أنظر على النيل من حولي ،،شعرت أني بفخ لا أستطيع الهروب منه

هل يمكننا العودة الآن ؟ لا أريد أن أترك خالة سعاد وحدها وهي متعبة.

سألته

في طريق العودة لم ننطق بكلمة طوال الطريق!

عندما عدنا كانت خالة سعاد نائمة، شكرت كريم واتجهت الى غرفتي

للحظة شعرت بحركة في الغرفة، أشعلت النور فإذا به جالس على مكتبي يقرأ كتاباتي..

شادي! هل سألتك الخالة سعاد عن شئ؟ أين كنت ؟حاولت

الاتصال بك كثيرا !

يبدو أنه يحبك ! قالها شادي بحزن

تقصد كريم ؟ أكنت تراقبني أم أن خالة سعاد أخبرتك ؟ لا شئ بيننا هو فقط يحاول مساعدتي

لا أحتاج أن أراقبك سارة .. أنا دوما معكِ

للأسف شادي هذا ليس صحيح، أنا أحتاج إليك كثيرا ولا أجدك

يفصلنا الواقع أحيانا سارة ولكن في الخيال أنتِ دوما لي

في الخيال؟ هل من المفترض أن يطمئني حديثك شادي؟ أنا لا أحتمل المزيد من الالغاز !

يوما ما ستعرفِ جيدا كم أحببتك، قالها شادي بعين ذابلة، كان وجهه شاحب كثيرا ويبدو عليه الإرهاق

ماذا بك ؟ أنت بخير؟ هل تنوي أن ترحل عني؟ سألته بخوف

اقترب مني وقبّلني بقوة، نظر طويلا إلى عيني

كانت عينيه مخيفة تلك الليلة، كانت قبلته مختلفة ،عناقه لي كان مختلف كل شئ كان يبعث مزيد من الخوف بداخلي

كان هناك طرق غريب علي النافذة، في البداية ظننت أنها ربما تمطر في الخارج

ولكن لم يكن هناك أثر للمطر في الشارع، أغلقت النافذة جيدا وعدت إليه فوجدته نائم في سريري، لابد أنه كان متعب للغاية..

استلقيت بجواره، قبلته على جبينه، لمست شعره ونظرت اليه طويلا

نمت على صدره ولكني لم أستطع أن أسمع ضربات قلبه

كنت خائفة جدا من فقدانه، احتضنته بقوة وبكيت

أغمضت عيني للحظة فكان قد رحل!

• • •

البعض يرى الطبيب النفسي على أنه ساحر سيمنحك تعويذته الخاصة التي ستشفي كل جراحك! والبعض يراه و كأنه مسافر غريب لديه كل وقت العالم ليسمعك ! الطبيب النفسي يمكنه أن يفسر شعورك ولكنه لا يملك مفاتيح حياتك، يمكنه أن يوقف النزيف ..أن يخدر الألم ..شفاؤك من جرحك أمر متروك لك تماما!

في صباح اليوم التالي اجتمعنا نحن الثلاثة على طاولة الأفطار.

بدأت الخالة سعاد الحديث؛

كيف كانت ليلتكم أمس؟ بعتذر لكِ سارة أني لم أستطع التنزه معكم فقد نمت من شدة التعب ولم أشعر بشئ ..

أجبتها : لا بأس خالة، كانت ليلة جيدة، كريم اعتني بي، وددت أن أعتذر لكِ أنا عن مجئ شادي امس هكذا دون موعد!

لمحت نظراتها لكريم في دهشة ثم نظرت اليّ

من شادي صغيرتي؟ ومتى جاء أمس ؟!

تسمرت للحظة و شعرت بالاحراج لابد من أنها تراني الآن فقدت عقلي..

لا شئ يبدو أن بعض الأمور أختلطت عليّ، أجبتها

بعد الأفطار طلبت الخالة سعاد أن نتحدث سويا

أمسكت بيدي بين كفيها كأنها عصفورة تحاول إطعامها وتخشى أن تفزع وتطير من بين يدها:

اسمعي سارة، اعلم أن الوقت غير ملائم لما سأقوله الآن ولكنكِ تدركِ أن بعد وفاة جدتك لم يبق لكِ سوانا أنا وكريم نحن عائلتك صغيرتي ،، لن اسألك عن شادي أن لم تودي الحديث عنه ولكني سأكون سعيدة للغاية أن اعتبرتني مثل والدتك وأخبرتني بقصته،،

كريم سيبقى في القاهرة أسبوعين على الأكثر ولا شك بأنكِ لاحظتي أهتمامه بكِ، كريم يأمل أن تصبحِ زوجة له فهو لديه أحساس دائم أنه مسئول عنكِ وأنا لن أعيش للأبد وسيسعدني أن اطمأن عليكم قبل موتي وأري ذريتكم وهذه كانت رغبة جدتك ايضا قبل موتها..

ولكن تأكدي أن كان هناك رجل أخر في حياتك فأنا سأكون أيضا بجوارك حتى اطمئن عليكي في بيتك ولكن لابد أن تتأكدي من صدقه اولا، لا أريد قلبك النقي أن يُكسر فأنتِ لا تعرفي الكثير عن الحياة وخبراتك محدودة، أنهت حديثها بقبلة علي جبيني ..

بالرغم من أن كل ما قالته الخالة سعاد متوقع ولكنه لم يمنع شعوري بغضب شديد تماسكت قليلا ثم قلت:

جدتي توفت منذ أيام وأنت تتحدثي عن عرس وزواج ! لابد أنها كانت لا تعني لك شئ .

نظرت الي في صدمة :

سامحك الله سارة، جدتك كانت صديقتي الوحيدة وكنت أحبها كثيرا، أنا لم أذكر عرس، فقط زواج ورقي دون أن ندعو أحد وبعد تخرجك يمكن أن نقيم حفل صغير كما أن كريم سوف يسافر لعمله وأنتِ تقيمي معي في شقتي ..

أجبتها بعد أن نفذ صبري:

بالتأكيد لن ندعو أحد خالة لان ليس هناك من ندعو ! من لم يهتم أن يحضر جنازة جدتي لن يأتي عرس حفيدتها بالطبع.. أرجوكِ خالة لا أريد التحدث في مثل هذه الأمور لا اليوم ولا غدا ولا أي يوم،، اتركوني وحدي ..

اتجهت لغرفتي وأنا أشعر بحزن يعصر قلبي،.. لم أعد أدري ماذا أفعل؟ و إين شادي وسط كل هذا العبث؟؟

ثم بحماقة فكرت في الحل السحري الذي سيكشف لي كل الأسرار ويحل كل مشاكلي ويجعلني سعيدة ويحقق لي أحلامي!! فكرت في أن الجأ إلى الطبيب النفسي ..

ظننت للحظة ببراءة طفلة أن الطبيب سيمنحني وصفة فورية

للنسيان، سيمنحني حبة دواء تجمد مشاعري، تنظم أفكاري وتجنبني البكاء!!

عدت الى الاسكندرية صباح اليوم التالي وبدأت رحلة البحث حتى وجدتها!

كانت الساعة السابعة مساء والعيادة مكتظة بالمرضي، لابد وأن العالم كله قد فقد عقله أو ان الحزن يحاصره !!

مساء الخير، كيف حالك سارة؟ مدت يدها الدكتورة هند لتصافحني

مساء النور، سلمت عليها وكنت أنتظر أن تدعوني لأستلقي على الكرسي لأبدأ أحكي قصة حياتي كما الأفلام ولكنها لم تفعل

جلست أمامها على كرسي المكتب وانتظرتها تبدأ الحديث

ما بكِ سارة ؟ حدثيني عن نفسك.. سألتني بصوت هادئ استفز كم الغضب بداخلي

أنا لست بخير،، لم أعد أفصل الواقع عن الخيال، كل شئ في حياتي يحمل أكثر من معنى،، أنا أحبه كثيرا وهو آخر من تبقى لي في هذا العالم! ودون أن أشعر بكيت مجرد ما ذكرته..

تمالكِ أعصابك ! كل شئ سوف يكون بخير ..

مدت يدها بالمنديل وهي تحاورني:

ما المشكلة سارة؟ هل يمكن أن تفسر لي ماذا يحدث معكِ حتى

أستطيع مساعدتك؟

أخبرتها كل شئ عن شادي وعن وفاة جدتي وعن الكوابيس التي تراودني فكان ردها مختصر و غريب ؛

انتِ واثقة من حبه لكي؟

أجبتها دون تفكير :

نعم ! ولكن هناك سر وراء اختفاءه المفاجئ لا أدري عنه شئ

مما يبعث الشك في إدراكي للأشياء لا الشك به..

أسمعي سارة ! سأطلب منكِ طلب حتى نتمكن من حل الموقف، أنا لا أدري أن كانت لديكِ مشكلة في رؤيتك للأشياء أم أنه شاب مراوغ يلهو بمشاعرك ويحاول أن يثير خوفك، حيث أنكِ لا تعلمي الكثير ايضا عن حياته لذلك أنصحك أن تسألي عنه، تبحثي خلفه، فقد يكون متزوج أو قد يكون كاذب في كل ما قاله لكِ عن عمله !

طرقت الممرضة الباب ثم دخلت مسرعة: دكتورة! هناك حالة طارئة بالخارج..

سمعت صراخ عالي وبنت في سن المراهقة تبكي وتصرخ وتتنفس بصعوبة ويحاول أبيها أن يهدئها بلا جدوى..

تركت العيادة وأنا في حالة يأس، لم تشعر حتى الطبيبة برحيلي أو ربما لاحظت ولم تبالي!

اتجهت نحو البحر ومشيت كثيرا لا أدري كم مر من الوقت!

بحثت عنه حولي كثيرا، تمنيت أن أخبره بما قالت الطبيبة وبما قالته لي الخالة سعاد أو ربما وددت أن أغرق في صدره ولا أنطق بشيء..

تذكرت كلمات الدكتورة هند وحاولت أن أصدق أي شيء منها لأنها تبدو التفسير المنطقي لكل ما يحدث، لكنها لا تدري عن من تتحدث، فهي لم تعانقه، لم تسمعه، لم تنظر إليه ولو فعلت لكانت وقعت في حبه واعتذرت له عن سوء ظنها .. ولكن لأنها جزء من الواقع افترضت الأبيض أو الأسود فقط!

وقفت أمام البحر وأغمضت عيني و بروحي خاطرته

عبر نسمات الهواء البارد،،

عبر الأمواج ،،

عبر كل مار ،،

أطفال ورجال ونساء!

شادي.. اشتقت إليك

أحببتك خيالا وعشقتك واقع

أين أنت ؟!

صرت كوكبا يدور في فلكك

فإن رحلت

اختل نظام الكون!

واختل توازني..

عدت غرفتي الساعة الثانية عشر صباحا، استلقيت على السرير، واطفأت الأنوار احتضنت وسادتي وحاولت أن أغفو قليلا حتي أخرس هذا الضجيج برأسي

شعرت بيده أثناء نومي تلمس ذراعي، شعرت بأنفاسه وهو يقبل عنقي، لم أفزع تلك المرة! كنت انتظره، شعرت أني داخل حلم ولم أعد أكترث أن كنت مستيقظة أم نائمة

لا يهم.. فهو هنا الأن

عانقته بقوة.. تحسست وجهه في الظلام ، قبلتّه وتحسست جسده كان عاري تماما ،خلعت ملابسي، أمسكت رأسه برفق وهمست في أذنه: أنا لك جسد وقلب وعقل، وقد حان الوقت!

أفعل بي ما شئت! و دون أن ينطق بكلمة حقق لي ما طلبت وكأن أجسادنا قد وثقت ذلك العشق ...

• • •

أحيانا نحيا الكذب بكل جوارحنا ونستمتع بكل لحظة به رغم اليقين أن ما نعيشه مجرد كذبة ولكنها تمنحنا الكثير من الراحة، فنظل نتمسك بها حتى أخر قطرة، نتغافل عن الحقائق بل أحيانا قد نزيفها لتتلائم مع ما نعيشه من كذب! و لكن لماذا نفتش عن الحقيقة أن كانت الكذبة رائعة؟!

في صباح اليوم التالي كنت أشعر براحة رغم أن شئ لم يتغير ولكن وجوده تلك الليلة كان مخدر قوي للألم حتى وأن كان حلم ،

لم أذهب للجامعة ذلك اليوم كنت أشعر أني في حلم وأردت أن أبقي به أطول وقت، كان الطقس مختلف.. الشمس مشرقة والطقس دافئ اخيرا

فكرت أن أتجول في المدينة، أحتسي قهوة في أي مكان وأكتب لشادي ربما ينجح التخاطر كما نجح أمس..

لا أدري كم مر من الوقت أثناء السير حتى توقفت فجأة

عندما رأيت علم المغرب أعلى المبنى، تسمرت لدقائق وتذكرت كلمات الدكتورة هند

كان بداخلي صوتين، صوت يرغب في أن يركض بعيدا وأن لا يعرف شئ

وصوت يلتمس الحقيقة، يخدعني بأن ربما الحقيقة تطمئني !

كم حمقاء أنا !؟ فالحقائق والكذب مثل الماء والزيت

كيف اختلط علي الأمر؟

وبشجاعة مقاتل لا يخشى الموت، اتبعت نصيحة دكتورة هند ودخلت لأبحث عنه ..

مرحبا سيدتي! كيف لي أن أساعدك ؟ قالها الحارس بالخارج

أسأل عن شخص أسمه شادي يعمل هنا ..

كانت ضربات قلبي تتسارع وكأنها في ماراثون!

آسف ولكن لا أذكر أحد هنا بهذا الأسم، أجبني الحارس

هل يمكنني الدخول أرجوك فهذه مسألة حياة أو موت، سألته وأنا ارتجف

لا بأس يمكنك السؤال في الداخل ربما أحد يستطيع افادتك، قالها الحارس وقد أظهر بعض التعاطف

دخلت المبنى وكان هناك أحد الموظفين أقترب مني ونظر لي منتظر سؤالي دون كلمة منه

سألته عن شادي وكان نفس رد الحارس !

ولكني متأكده أنه يعمل هنا، أرجوك حاول أن تساعدني، حاولت استعطافه كي يمدني بأي معلومة عن شادي

اسف سيدتي ولكني متأكد ايضا أنه لا يوجد شخص بهذا الأسم، هل لديك صورة له؟

بحثت كثيرا في هاتفي، لم أجد إي صور لنا! فكرت

للحظة كيف للخالة سعاد أن تعبث بهاتفي !!

كان الموظف نفذ صبره، اعتذرت له ومضيت نحو البوابة حتى ناداني :

مهلا ! كان يعمل معنا شاب اسمه شادي بالفعل ولكنه توفي منذ فترة بعيدة .. كان صديق مقرب لي .. رحمه الله .. قالها بصوت حزين

هل لديك اي صورة له .. أرجوك ،، سألته

أتذكر صورة جماعية لنا منذ ثلاث سنوات، لحظة سأحضرها لكِ

غاب بضعة دقائق شعرت وكأنها عمر بأكمله،،

ها هو شادي يرتدي بدلة سوداء، هل هو من تبحثين عنه؟ سألني بفضول

تسمرت للحظة ولم أقوى على النطق،، تمالكت نفسي قليلا وسألته:

هل يمكن أن تخبرني سبب وفاته؟

كان يوم أليم !

بعد اختفائه يومين وجدناه في شقة كان يستأجرها مؤقتا في ستانلي، غارق في حوض الأستحمام، البعض أدعي أنه قد يكون انتحر ولكن حتى الأن لا أحد يعرف ! هل كنتِ على صلة به؟ سألني الموظف

اين كانت شقته؟ سألته متجاهلة سؤاله

أخبرني بعنوانه!

كان نفس عنواني الحالي!

غادرت القنصلية في حالة من اللاوعي!

شعرت بكل شئ حولي ينهار ،، المباني ،، الطرقات ،، السيارات، كل شئ أصبح كتلة من الرماد ..

عدت الى غرفتي في حالة يرثي لها، فها قد زاح الضباب الذي عشت به أسعد لحظات حياتي!

ها قد وجدت تفسيرا لحصاره واختفائه ،،

وجدت تفسيرا لما في كل مرة كنا في المطعم كنت أدفع حسابي فقط، وأنه لا يلمس طعامه!

وجدت تفسير لما عطره في وسادتي!

وجدت تفسير لما لم تدري عنه شئ الخالة سعاد!

ولما وجدته جثة في قبر جدتي!

وجدت التفسير المنطقي لكل شئ غير منطقي!

ولكن من يفسر حكمة الأقدار في أن تقتلني بأسم الحياة وأن تحيه بأسم الموت!

اتجهت للحمام ونظرت كثيرا لحوض الاستحمام وتخيلته غارق لا يقوى على التنفس ،، تخيلت البخار يملأ المكان ورائحة الموت تبعث الفزع في أركان الغرفة..

صرخت.. شاااادي ...أين أنت؟

شاااادي لقد عرفت..

بكيت كثيرا

و صرخت كثيرا

حتى فقدت صوتي وفقدت الوعي..

• • •

صباح يوم جديد من أيام الصيف شديدة الحرارة في مراكش، كنت أجهز للذهاب الى الجامعة حين نادتني والدتي

شادى الفطور جاهز ..

اجتمعنا سويا أنا وأمي وأبي وأخي سعد الأكبر مني بثلاثة أعوام، أذكر إن ذلك النهار كان آخر نهار نجتمع فيه سويا على طاولة واحدة..

كان هناك صمت غريب على غير العادة لم أكن أدري ما سببه

بدأت الحديث مع أخي :

هل من جديد في إجراءات سفرك ؟

أجل، في خلال شهرين على الأكثر سوف أكون في النعيم أخي، أراك تشعر بالغيرة ولكن لا بأس يمكنك اللحاق بي بعد تخرجك إذا حالفك الحظ!

قالها سعد وهو يضحك، كان له دوما حس فكاهي يأخذ كل ما في الحياة على محمل السخرية، رغم كونه أخي الأكبر ولكن دوما ما كنت أشعر بالعكس

أنا لا أنوي السفر، لا أقوى على الغربة .. سوف أعيش في المغرب وأموت بها.. أجبته

ضحك سعد في سخرية ؛

إذن لن تعيش ابدا،

شعرت إن هناك خطب ما بين أمي وأبي، كانت شاردة ولا تأكل ظننت إن ربما حديثنا عن السفر قد احزنها، نظرت إلى أبي فوجدته هو الأخر شارد ولم يرفع عينيه عن طبقه

لطالما اتسم بيتنا بالهدوء، ذلك الهدوء المخيف الذي تنتظر العاصفة إن تهب في أي وقت لتطيح به

أبي كان رجل سياسي يتسم بالاتزان في كل شئ حتى في مشاعره

كان كل شئ لديه قابل للحساب بالورقة والقلم، تعلمت منه الكثير من الحكمة والصبر على مصاعب الحياة، كانت شخصيتي أقرب كثيرا إليه من أخي سعد الذي اعتاد أن يعيش الحياة دون حساب لأي شئ

أما أمي فكانت ربة منزل تركت عملها في التدريس منذ كنا أطفال كي تعتني بنا، كانت جميلة رغم علامات الزمن التي لم تنسى أن تضع بصماتها عليها، كانت علاقاتها بأبي يسودها الأحترام أكثر من المشاعر

اتجهت إليها في غرفتها بعد الفطور لأطمئن عليها

ماذا بكِ أمي؟ هل أنتِ بخير ؟ سألتها

سرحت قليلا في عيني ثم أجبتني بحزن:

هل تعلم أنك نسخة من أبيك شادي، لك نفس ملامحه الرجوليه، نفس قدرته على كتمان مشاعره حتى مجال دراستك اخترت نفس طريقه

وهل هذا شئ سئ ؟ سألتها وأنا قلق عليها كثيرا فلم أري كم الحزن في عينيها هذا من قبل

لا عزيزي ولكن والدك قد خذلني بعد خمسة وعشرون عاما من الزواج

قالتها أمي وقد بدأت في البكاء

احتضنتها وحاولت تهدئتها،، كم من الصعب مواساة من هو دائما مصدر مواساتك، إن ترى الدمع في من تراه دوما في وضع قوة ،، فحين تهزمنا الحياة تصبح قوتنا السابقة عبء زيادة على قلوبنا المنهكة

أخبريني أمي ماذا حدث لكل هذا الحزن؟ سألتها وأنا أمسح دموعها بكفي

لقد فقدت أنوثتي شادي، فقدتها تماما حتى صرت أشبه بالمسخ .. لا يمكن أن تعرف أبدا ما هو أحساس إمرأة تذبل كل يوم فتصبح زهرة عديمة الرائحة واللون، من يحب إن يحتفظ بالزهور البلاستيكية ؟ فهي تفتقد الحياة، لا تحتاج لرعاية فتنسي وجودها مع الوقت لا يتذكرها

سوى ذرات التراب حين تستقر فوق أوراقها المنسية!

امسكت وجهها في رفق وقلت؛

أمي.. أنا لا أفهم شئ فأنا أراكِ دوما جميلة، اتمنى ان اتزوج يوما من هي في جمالك !

ولكن والدك قد سئم هذا الجمال ان كان موجود كما تدعي، لقد وقع في حب جمال برعم لم يتفتح بعد، ما أصعب الخيانة عندما تمنح كل عمرك لمن لا يستحق ! قالتها أمي بأسي شديد ثم أعطتني هاتفها لأشاهد صور أبي مع شابة في منتصف العشرينات ذات جمال ناعم تبدو كأنها طفلته المدللة

لم أقوى على النطق فأبي كان مثلي الأعلي لم أتوقع أبدا أن يقع ضحية لشهواته، حاولت التماسك لأفكر في ما سأقوله لأمي في هذا الموقف الذي تمنيت إن لا أعيشه ابدا

انا اسف أمي أتخيل الآن كم الألم الذي تشعرين به ولكنك تعلمي إن الرجل بعد الخمسين يعود طفل، ربما هذه نزوة منتصف العمر كما يقال، لطالما عاش أبي عبد للعمل وربما أغرته تلك الشابة بحياة وردية في وقت حرج من عمره ولكنه بالطبع سيندم ويعود اليكِ ليطلب سماحك خاصة أنه لن يضحي بسمعته في عمله وحياته التي بناها سنوات طوال مقابل نزوة كهذه ! أجبتها وأنا نفسي لست مقتنع بما أقول فأنا أعرف أبي جيدا ولابد من إن هناك شئ قوي ليقع في مثل هذا الفخ

لا شادى، ليست شهوة أو نزوة كما تظن فأبيك قد وقع في حبها ! قالتها وهي تبكي بكاء شديد لم أدري إذا كان بكائها حب لوالدي أم

وجع لكرامتها أم حزن على سنوات عمرها التي زرعتها في أرض جرداء لم تنبت سوى حنظل!!

هل واجهتي أبي بتلك الصور ؟ سألتها وأنا أخشى الاجابة

تماسكت قليلا ثم قالت؛

نعم واجهته وكما قلت لك لقد أعترف بحبها وأنه ينوي الزواج منها و طلبت الطلاق ! جففت دموعها بيدها وكأن قرار الطلاق أشعرها ببعض القوة

هل يمكن تأجيل أي قرارات مندفعة حتى أتحدث معه،

ليس هناك فائدة من الكلام، أفعل ما شئت لن يتغير شئ !

قبلتها في رأسها طلبت منها إن تستريح قليلا ورحلت

• • •

مواجهة أبي كانت أمر لابد منه فبالرغم من صدمة أمي و قرار الطلاق ولكن كنت ارى في عينيها أنها تلتمس مني حل الموقف خاصة أنها لم تخبر اخي سعد فقد وثقت فيا وكنت أشعر أنها لازالت تأمل بأن حديثي معه قد يغير من سوء الوضع أو قد يعدله عن قراره..

في مساء ذلك اليوم انتظرت أبي كثيرا حتى صارت الساعة الواحدة صباحا وغلبني النعاس على الاريكة امام التلفزيون أما أمي فلم تخرج من غرفتها منذ رجوعي من الجامعة ربما كانت في داخلها تنتظره ايضا وقلقة على غيابه

كان سعد أخي في عالمه الخاص مع اصدقائه لا يدري شئ مما يدور في المنزل!

يالك من محظوظ سعد فأنت من تحرك عالمك.. لا شئ حولك يستطيع العبث برأسك..

استيقظت على ضوء النهار ..جلست قليلا حتى ادركت أن أبي لم يأت بعد.. سمعت صوت سعد من خلفي ينادي

اين الفطور! أنا جاااائع..

أخفض صوتك لابد من إن أمي لا تزال نائمة فهي لم تنم جيدا أمس..

اقترب سعد مني وسألني:

ماذا يحدث ؟ أمي لم تستيقظ لتجهيز الفطور وابي ليس بالبيت و أنت نائم على الاريكة، أهذا كله لان ميعاد سفري قد اقترب؟لم أعرف أنكم تحبوني كل هذا الحب..ثم ضحك في لا مبالاة

أتظن أن العالم كله يدور حولك؟ سألته في ضيق

ما بك أخي؟ أمزح معك..أخبرني ما الأمر؟

لقد ترك أبيك المنزل وأمي طلبت الطلاق بعد كشفها لخيانته مع فتاة في العشرينات من عمرها..

اتسعت عيناه وقال وهو يحك ذقنه:

أبي! هذا اللعوب ! لقد كنت أشك طوال تلك السنوات إن لديه قلب و شئ أخر لابد من أنها جميلة وشقية تلك الفتاة .

حقا! هل هذا كل ما همك في الأمر سعد؟ قلتها وقد نفذ صبري

اهدئ يا أخي لا ادري لماذا دائما تبالغ في ردة فعلك للأمور؟ أبيك رجل عجوز وأراد بعض الاثارة في حياته،،سوف يمل مع الوقت ويعود

لامي وكأن شئ لم يكن.هذا أن استطاع أن يفعل شئ مع تلك الفتاة لا أظن أن لديه طاقة لخوض مثل تلك المعارك ..اه هذا الكهل ! قد يحتاج بعض المقويات..

قالها وهو يضحك

كنت مصدوم من ردة فعل سعد رغم معرفتي به جيدا ولكني لم أكن أتوقع بأن حتى في مثل ذلك الأمر سوف يكون أحمق هكذا ..حقا الشخصية كالبصمة لا تتجزأ مهما اختلفت المواقف

اسمع سعد أي كان رأيك احتفظ به لنفسك ولا تتحدث مع أمي حتى لا تثير غضبها أكثر.

لك ما أردت أخي و الأن ألن نفطر اليوم؟

نظرت إليه في غضب و تركته واتجهت نحو غرفة أمي لاطمئن عليها ..كانت نائمة محتضنة وسادتها

قبلتها في جبينها وغادرت في هدوء حتى لا أوقظها..

لم يكن هناك حل سوى أن أذهب لأبي مكان عمله وها قد ازداد الوضع صعوبة ..

في الطريق إليه تخيلت مئات من السيناريوهات للحوار..

ماذا يمكن أن يقال في الخيانة ؟تلك الكلمة الثقيلة التي تغلق الباب في وجه أي كلمات أخرى..لا مبرر يمكنه أن يخدر ذلك الألم الذي قد يصيب قلب احب بصدق و طعن بالكذب..الخيانة تكسرنا .. تهشم ثقتنا بأنفسنا.. تثير الشك فينا أكثر من الشك في الآخر

و ما أصعب إن تكون الحكم بين اثنين من ذاتك ! كيف يمكن أن تكون القاضي والدفاع؟ إن تنصر الضحية وتلتمس العذر للمتهم ؟

وصلت المكتب أخيرا، ويبدو إن أبي كان في انتظاري فقد سمحت لي السكرتيرة بالدخول فور وصولي دون أن تسأله

للوهلة الأولى عندما رآني كان يعرف أني على علم بكل شئ...

كانت عينيه منكسرة لا تقوى على النظر الى ! لم أصدق إن هذا هو أبي الذي كنت أخشى نظراته لي عندما أخطأ واختبأ في غرفتي عندما كنت صغيرا كي اتحاشي مواجهته!

كيف يمكن للحياة أن تبدل الأدوار؟ كيف يمكن للخطأ أن ينتهك قوتنا ؟ أن يحولنا من تمثال من الكمال الى لحن شاذ يفسد سيمفونية متوازنة؟

كيف حالك شادي؟ كنت أعلم أنك ستأتي وقد وددت الحديث معك؟

كيف تتوقع إن يكون حالي يا أبي وأنا أري بيتنا الهادئ ينهار بعد كل هذا العمر؟

اسمع يا بني.. أنت و سعد الأن رجال هو سوف يسافر لاستكمال دراسته وأنت سيكون لك مستقبل بعد التخرج في السفارة وكلاكما سوف يتزوج ويكون له حياته الخاصة،، و أنا قد قضيت عمر كامل في رعايتكم وقد حان الوقت كي استقر بحياتي الخاصة بالشكل الذي أجد به راحتي..

لقد تحدثت عني وعن سعد فماذا عن أمي؟ سألته

أمك امرأة رائعة شادى ! ولكني قد عشت بدون قلب خمسة وعشرون عاما ..شعرت معها بجو الأسرة ورعايتها لي كزوجة ولكني لم أشعر قط بحبها ،،فقدت الكثير من المشاعر كرجل واحيانا قد تمنحنا الحياة الفرص في الوقت الخطأ أو بالصورة الخطأ ولكنها على الأقل تذكرنا قبل النهاية..لا تظن الأمر سهل على فأنا متعب كثيرا وبداخلي الكثير من الصراعات التي لا تعرف عنها شئ.

كنت أشعر بضعفه أكثر وأنا أنظر الى شعره الأبيض والتجاعيد حول عينيه كيف لم ألاحظ علامات العمر عليه من قبل..ليتك تعرف أبي الصراع الذي بداخلي أنا أيضا..حاولت إن أحل الموقف دون إن اعاتبه أو اقسو عليه.. هل يمكنك على الأقل إن تظل في المنزل؟ لا داعي لأن تنهي كل شئ بتلك الصورة..سألته

والدتك يا بني من طلبت مني الرحيل..لا يمكن إن أبقى فوجودي يزيد من آلامها الذي تمنيت أن لا أكون أبدا سبب فيها..و لكني هنا يا شادى دائما من أجلك متى احتجت الي سوف تجدني..

غادرت المكتب و أنا لا أعلم ماذا سأخبر أمي، لم أكن أتوقع إن ينهار أبي ويعترف بالذنب ويرجوني السماح ويطلب العودة إلى المنزل، كنت أعلم أنه قد اتخذ قراره الذي لا عودة فيه

ورغم تعاطفي مع أمي لم أكن احقد عليه ،، كان كلاهما محطم يبحث عن إجابة لأسئلة كثيرة ألقتها الحياة في طريقهم دون أن تترك لهم مخرج منها

• • •

سافر سعد بعد رحيل أبي بأسبوعين أو أكثر ،، صار البيت فارغ تماما فبالرغم من إن سعد مختلف تماما عني ولكنه كان يضيف جو من المرح في المنزل افتقدته كثيرا، أنا وأمي وحدنا حول الطاولة صرت أحفظ حديثنا اليومي كيف سيمضي السؤال المعتاد عن الدراسة وسؤالي المعتاد عن صحتها، كنت أتجنب الحديث في أي أمر يخص أبي .. كنت أحاول إن لا المس هذا الجرح المفتوح بيدي.

رأيت أمي في كل يوم تذبل أكثر ،، تكبر أعواما لم تعشها بعد ..

وكنت أفشل دوما في إسعادها في كل محاولة لأن نتنزه سويا أو أجلب لها هدية تحبها لم يكن هناك شئ يضفي البهجة على حياتها.. تمنيت إن يكون لي نفس الحس الفكاهي مثل سعد لربما كنت استطعت أن ارسم ضحكة حتى لو مؤقته على هذا الوجه الحزين الذي أصبح كل ما املك..

مضت الأيام كئيبة ..كيف يمكن لكل شئ إن يتغير في لمح البصر ودون سابق أنذار وكيف علينا إن نتأقلم على أي وضع أي كان بصدر رحب ونفس مفتوحة على الحياة؟

في ليلة من ليالي الحزن.. كنت بائس لدرجة الرغبة الشديدة في الهروب ..الهروب من ضجيج رأسي من أعين أمي الحزينة والتي لا أعرف لسبب ما كنت أشعر بأن لي دور فيها..أقترح على صديق بأن نذهب الى إحدى الحانات كي نكسر الروتين اليومي ونشعر ببعض الحماس

في المساء اطمأننت أن أمي قد نامت وتركت لها رسالة أني سوف أسهر مع صديق لي

اتجهنا سويا نحو منطقة لأول مرة أراها خارج أسوار المدينة القديمة،،أوجه الناس غريبة تنظر الينا دون أن تطرف عينها وكأننا نبدو بوضوح أننا غرباء عن المكان ..وعلى جانب الشارع القديم فتاة صغيرة ربما في الخامسة عشر من عمرها تدخن السيجارة وترتدي تنورة قصيرة و كأنها تنتظر أحد ما..

دخلنا حارة ضيقة في حارة أضيق مزدحمة بالمتسولين ودخان غريب له رائحة عطرية مميزة ، يبدو إن صديقي قد اصطحبني الى أسوأ الحانات في مراكش والتي ربما لا توجد على الخريطة..

ألم نصل بعد؟سألته وأنا أنظر الى ساعتي فقد مر أكثر من ساعة في الطريق

لا تستعجل يا صديقي أعدك ليلة لن تنساها،أنسى أمر الساعة

تماما ..أجابني

دخلنا شارع مظلم يتخلله صخب موسيقى كإحدى حفلات الروك فترة الثمانينات..دخلنا من بوابة صغيرة بعد أن تأكد الحارس من أعمارنا ولا أدري كيف شك بنا في الأساس ولكن ربما هو يرى عمله بضمير مبالغ به..

المكان كان صاخب كثيرا..الأضواء خافتة حمراء والناس بالداخل كل في عالمه الخاص بدا عليهم السكر

كل هارب من عالمه الى عالم مزيف تملؤه ضحكات مفتعلة ..وجوه يغطيها مساحيق التجميل لتخفي علامات العمر أو ربما لتخفي ندبات الحزن..كل يبحث عن سعادة وقتية لتمنحه بعض الصبر ..بعض القدرة على قبول وضع مرفوض أو بعض الطاقة لمطاردة حلم ابتعد الى أقصى الأرض..

جلست مع صديقي على إحدى الطاولات القريبة من البار وكانت تلك هي المرة الأولي التي أراها فيها

عندما نظرت الى البار وجدتها هناك تخدم إحدى الزبائن ..كانت ترتدي بلوزة حمراء قصيرة مفتوحة تكشف عن صدرها وبطنها ..شعرها مرفوع الى الأعلى فيظهر جمال وجهها أكثر..عينان واسعتان مكحلتين وأحمر شفاه ذو لون صاخب ..لابد أنها رأتني أنظر إليها نظرت في اتجاهي وابتسمت ابتسامة ناعمة..

لم أعرف إن لك ذوق جيد في النساء! قال صديقي

لا تظن شئ لقد لفتت انتباهي فقط لأنها صغيرة وجميلة كنت اتسأل

ما سر اضطرارها للعمل هكذا. أجبته

كلهن جميلات صديقي.. العاهرة والراهبة..لا أحد يختار طريقه.

بعد قليل اقتربت الفتاة الى طاولتنا ونظرت الى وكأنها تقصد إن تتجاهل صديقي

مالت قريبا مني حتى شعرت بأنفاسها وقالت:

فاطيما في خدمتك سيدي!

ارتبكت كثيرا ونظرت الى صديقي وكأني أطلب منه إن ينقذني

ضحك ونظر إليها وقال:

اختاري لنا مشروب جرئ مثلك ربما يفك عقدة لسانه

نظرت إليه في غضب فقد شعرت بأحراج شديد ويبدو أنها لاحظت ذلك فقد اومأت برأسها وابتسمت ثم مضت

ما هذا لماذا قلت ذلك؟لقد أحرجتني..

لم أعرف أنك ساذج هكذا شادى،،ما عمرك أخي عشرة أعوام.. قالها وهو يضحك

هذا خطئي أني وافقتك على هذا المكان الموبوء..

موبوء! ما بك شادى ألا تستطيع إن تمرح قليلا..أراهن أنك لم تقّبل فتاة من قبل فقد أحمر وجهك من مجرد قربها منك.

أنت محق .. لم أفعل! أجبته

إذن هذه فرصة جيدة ..الفتاة جذابة ومثيرة و سوف تحطم عذريتك الى اشلاء و لو ما رأيت إعجابها بك ما كنت تركتها اليوم ألا وهي على سريري.

لا.. لا أريد هنيئا لك الفتاة

أخبرتك أنها معجبة بك ثم أننا هنا لتجرب شئ جديد..هيا صديقي تجرأ قليلا يمكنك طلب رقمها أضمن لك الحصول عليه

كنت متردد كثيرا رغم فضولي لمعرفة فاطيما عن قرب ولكن لم يكن هدفي مثل صديقي فكان هناك شئ بها يثير فضولي أكثر ما يثير جسدي..

اقتربت فاطيما بالمشروب ولم تدع مجال للتفكير في الأمر تركت لي ورقة صغيرة تحت كأسي:

تبدو متعب.. ما رأيك في بعض التدليك لتسترخي؟سأنتظرك خارج الحانة بعد انتهاء دوامي.

نظر الى صديقي وابتسم حين أخبرته بمحتوى الورقة وقال:

أرأيت لن تكن الأمور أسهل من ذلك! فقط استمتع و خذ احتياطك ثم غمز لي

مشروب تلو الأخر لا اذكر عدد الكؤوس التي أعددتها فاطيما وكأنها أرادت إن تحجب عقلي تماما حتى لا أعيد التفكير في الأمر..

كانت الساعة اقتربت من الثانية صباحا ..شعرت بثقل شديد في رأسي

هيا بنا ! أشعر أني لست بخير..هل تستطيع أنت أن تسوق ؟سألت صديقي

أي سواقة ! هل نسيت؟ فاطيما في انتظارك يا محظوظ..قالها صديقي وهو لا يبدو عليه أي أثر للسكر وكأنه رأسه مصفح ..

لقد نسيت فعلا..إذن هيا بنا أريد إن أعود للمنزل قبل استيقاظ أمي الفجر.

في طريقنا للخارج كانت فاطيما تنتظرني عند ناصية الشارع ترتدي سترة سوداء طويلة

حتى ظننتها في البداية أحد المخبريين السريين خاصة وأن رأسي كان لا يستطيع تمييز أي شيء تلك الليلة.

رحل صديقي وأنا لا أدري كيف سيصل بيته من هذا المستنقع !

فتحت باب السيارة وركبت بجواري شعرت عطرها النفاذ قد أفاقني قليلا من سُكري،

أهلا فاطيما! إلى أين نذهب؟ سألتها

مكان قريب من هنا .. الى شقتي.

• • •

لم يكن هناك إي حوار أثناء رحلتنا سوى سؤالها عن أسمي وكنت أحاول التركيز في الطريق بصعوبة حتى أني نسيت وجودها بجواري..

بعد السير بالسيارة لربع ساعة في شوارع ضيقة لا تختلف كثيرا عن ما كنا فيه أنا وصديقي وصلنا الى منزلها..

كانت شقتها صغيرة للغاية حتى أني رأيت غرفة نومها فور دخولي،، لها رائحة كأحد أنواع البخور الهندية الغريبة، بورتريهات لأناس لم أسمع عنهم من قبل، بعض أوراق التاروت على الطاولة وكتب كثيرة في مكتبة معلقة أغلبها عن ما وراء الطبيعة والغيبيات !

هل تقرأين أوراق التاروت؟ تبدين مهتمة كثيرا بالعالم الأخر! سألتها

العالم الذي نعيشه واضح كالشمس، نحن بحاجة الى كتب عن ما لا نعرفه..

هل تسمح لي بتغيير ملابسي؟

بالطبع تفضلي..

انتظرت قليلا حتى ظهرت بقميص نوم أسود طويل كاشف لكتفها وصدرها، وقد مسحت عن وجهها بعض مساحيق التجميل فبدت أصغر وأجمل وأكثر غموضا.

اقتربت مني وجلست بجواري نظرت طويلا الىّ كانت عيناها قوية،، صارخة ،، جريئة تبعث التوتر في قلب أي رجل..

تحدثنا كثيرا عني وعن دراستي وتفاجأت حين أخبرتني أنها قد أنهت دراستها في الجامعة منذ خمس أعوام!

هل تسمح لي بسؤال؟ ما الذي يجعل امرأة جميلة ومتعلمة مثلك إن تعمل فتاة بار؟

هل تؤمن بتلك الخطب الساذجة عن كيف يختار الإنسان طريقه وأن الأحلام رهن إشارتنا وكأننا نملك عصا سحرية قادرة على فعل المستحيل؟ نحن مجرد دمي شادى هنالك قوة أعظم تحركنا، نحن لا نختار أقدارنا بل هي من تختارنا!

أنا أؤمن بأن الإنسان يمتلك إرادة حرة، لا يمكن أن نلقي أخطاؤنا و سوء اختيارنا على الأقدار، إن كانت الأمور هكذا فالسارق والقاتل والزاني وكل مرتكب خطيئة هو ليس سوى مجرد ضحية القدر!

إن كنا نمتلك إرادة حرة يا شادى إذن فلماذا هناك لاجئين ضحايا حروب لا ذنب لهم فيها سوى أنهم ولدوا في ذاك الوطن! لماذا هناك يتامى و أطفال شوارع لا يجدون قوت يومهم؟ إن كانت الناس تختار أقدارها لماذا إذن فقد البعض أعضائهم والبعض ينعم في ملذات

الحياة وقصورهم؟

أنتِ تخلطين الأمور فاطيما، أنا مؤمن بالأقدار ولكني أيضا مؤمن بأن هناك توازن بين الأبيض والأسود على الأرض، هناك حكمة في توزيع الأرزاق والأدوار لا يعلمها ألا الله.. لابد من أنك قد مررتِ بظروف عصيبة شتت تفكيرك..

أنت محق.. ! هل تظن إن هذه هي الحياة التي تمنيتها يوما عندما كنت فتاة في الجامعة ،، كانت أحلامي بسيطة مثل أي فتاة كنت أحلم بفارس الأحلام بقصة الحب الخيالية بالبيت والأسرة والأطفال حتى تزوجت منه فلم يبق من الحلم سوى الرماد الذي تراه..

اسف فاطيما..يمكننا تغيير الموضوع إذا كان يزعجك الحديث به..

لا بأس! فقد تجاوزت الأمر ..الجراح لا تنزف الى الابد..

ولكن أحيانا الحديث عن الذكريات قد يفتح أبواب الألم من جديد.

هناك مرحلة من الألم لا نشعر بعدها بشئ ..لكل منا سعة تحمل حين تمتلئ فلا وجع بعدها قادر إن يصل إليك

نظرت إليها بتعاطف بالرغم من إن كلماتها كانت صلبة و توحي بشخصية قوية لم يعد لديها ما تفقده

كيف امتلأت سعة تحملك في مثل هذا العمر الصغير؟سألتها في فضول

بعض اللحظات في العمر قد تغير من مسار حياتك و كان لقائي به من تلك اللحظات..كنت في العام الأخير من الدراسة التقينا صدفة

في إحدى الحفلات لصديقة لي..اقترب مني وتعارفنا ..كان رجل ذكي يعرف كيف يعزف على أوتار قلب الأنثي بكلماته الساحرة.. بإهتمامه وبروحه المرحة ..أحببته كما لم أحب يوما وبعد شهور قليلة تزوجنا وكنت سعيدة للغاية أحلم كل يوم بأن أحمل طفله بداخلي.. احساس الامومة كانت رغبة ملحة مثل هاجس يطاردني منذ كنت صغيرة فأحمل دميتي معي في كل مكان أطعمها واحممها واعتني بها ..بعد شهور من الزواج بدأ يتغير كثيرا يسهر خارج المنزل حتى الصباح ويعود ثمل يطلب مضاجعتي ..تغيب كثيرا عن عمله بسبب سهراته التي أصبحت شبه يومية حتى تم رفضه من العمل وأصبح مزاجه حاد أكثر خاصة أنه لم يكن معه أي نقود للسهر وأنا لم أكن أعمل وقتها ..باع كل مجوهراتي وحين كنت أعترض كان يضربني بعنف شديد حتى أفقد الوعي ..كنت عاجزة عن كل شيء وكنت أعلم بأن الأمر لن يستمر طويلا وأنه لابد من تدخل القدر لإنهاء الوضع بطريقة أو بأخري..

حتى تلك الليلة حين دخل المنزل مع صديق له كنت أول مرة أراه.. له شكل غريب كإحدى قطاع الطرق و كان كلاهما ثمل حتى النخاع.. دخلت الغرفة و تظاهرت اني نائمة حتى لا يراني..و لكنه بعد قليل وبعد أصوات ضحك كثيرة سمعته يتحدث مع صديقه بصوت عالي:

ألف درهم كما اتفقنا في الخارج

ألف درهم! هل أنت مجنون أنا لا أدفع ذلك المبلغ حتى لو كانت عذراء..

سوف تدفع أكثر بعد أن تراها..جاءني صوت زوجي وأنا لا أصدق ما أسمع

أسرعت نحو باب الغرفة أغلقه بالمفتاح ولكنهم قد سمعا حركتي ..أسرع زوجي نحو الباب وكان وجهه يملؤه الشر شعرت و كأنه شخص آخر لا أعرفه..جذبني من شعري نحو السرير وصرخ في أذني:

عاهرتي الجميلة ..استمتعي دون صوت!

كان صديقه خلفه ينظر الى برغبة مقززة ورائحة الخمر تفوح منهما

تركنا زوجي أنا وصديقه في الغرفة وحدنا وأغلق الباب من الخارج ولا أعرف إن كان ترك المنزل وقتها أم كان بالخارج يستمتع بصرخاتي ، بإغتصاب زوجته التي تحمل اسمه..

اقترب مني صديقه ..حاولت ان اصرخ فضربني بعنف على وجهي.. فتح خزانة الملابس وأحضر رابطة عنق زوجي حتى ظننت أنه سوف يخنقني ولكنه قيد بها يدي ونزع عني ملابسي وضاجعني بصورة وحشية

حتى أني تمنيت الموت ينقذني من بين يده..تركني ملقية على الأرض في حالة يرثي لها من الأسى

كرهت جسدي كثيرا ذلك اليوم وكرهت كل الرجال..

شعرت بها ترتجف ، توقعتها تبكي ولكن عيناها كانت متحجرة ربما قد بكت حتى جفت عيناها

هل أنتي بخير؟سألتها

أجل..أنا بخير أعتذر لك عن ازعاجك بقصتي..أجبتني بابتسامة حزينة

إطلاقا..إذا كنتي لا تفضلين تكملة الحديث فلا بأس ..

لا عزيزي بالعكس فهذه أول مرة أحكي عن حياتي..ربما لأن أحد لم يهتم إن يسألني من قبل ..

إذن كيف انتهت تلك الليلة وكيف تحملتي هذا الظلم؟سألتها

تلك الليلة شادى تحول كل شيء بداخلي ..تحولت أفكاري..أحلامي ..مبادئي..رؤيتي للحياة..فقدت الثقة في كل من حولي..أما هو فقد رحل قبل رحيل صديقه و اختفي لمدة أسبوعين لم أكن أعرف شيء عنه

كنت في ذلك الوقت ألملم نفسي كنجمة سقطت من السماء فتناثرت في كل بقاع الأرض..

بعدها عاد الى المنزل ليطلب نقود وكان في حالة مزرية ..نظرت إليه وسألته:

أين زوجي؟من أنت؟ نظر الى بضعف لم يثير شفقتي بقدر ما أثار اشمئزازي

أنا زوجك..هل فقدتي عقلك؟هيا أعطني نقود..أجابني بلسان ثقيل وكأنه يحتضر

أجبته : عن إي نقود تتحدث أنت تركتني دون درهم واحد ولم يعد هناك شيء في المنزل ليباع..أغرب عن وجهي كفاك خرابا لي ولحياتي..أكرهك

جذبني من رأسي ودفعني نحو الحائط ورحل..

بعدها اكتشفت الخبر الأسعد في الوقت الاتعس من حياتي،،اكتشفت أني حامل..عندما رأيت اختبار الحمل ضحكت كثيرا ليس فرحا بقدر السخرية ..وقتها اكتشفت أن الحلم أصبح وكأنه لعنة ألقيتها على نفسي يوما ما فتحققت..

سكتت قليلا حتى سألتها:

هل أخبرته بأمر حملك؟

لم أكن أعرف كيف أصل إليه ولم أشعر إن أمر حملي سوف يغير من حياته شيء فقد اختار طريقه بالفعل،،ولكن بعد مضى أكثر من شهر كنت أعمل كمربية بالساعة في إحدى البيوت حتى أوفر قوت يومي..عدت إلى المنزل فوجدته في انتظاري..صرخ في وجهي: اين كنتي؟كنتي في سرير رجل أخر؟

لم أكن أنوي أن أخبره بأمر حملي ولم أكن حتى أرغب في الرد على سؤاله فهو يعرف جيدا أنه يهذي ولكنه كان يحاول أن يثير أعصابي ولكن صمتي قد استفزه حاول أن يضربني فأوقفته بأني حامل ولكن اعترافي قد أثار غضبه أكثر وقال: أيتها العاهرة لن تعرفي أبدا من اب هذا الطفل ولكني سوف أريحك من تلك الحيرة..

ركلني في بطني بكل قوته مرة تلو الأخرى حتى وجدت نفسي مستيقظة في المشفى وقد فقدت الطفل.

يا الهي! مسكينة فاطيما..لقد عانيت كثيرا؟ولكن لماذا لم تلجأي إلى أحد من أهلك أو أهله لماذا حملتي كل شيء على عاتقك وحدك؟سألتها

أبي رجل عجوز متقاعد وأمي توفت وأنا في السابعة عشر ..لي أخت

واحدة أكبر مني متزوجة و لها حياتها الخاصة لم أشأ أن أقحمها في مشاكلي أم أهل زوجي فقد تبرؤا منه بعد طلبه المستمر للنقود وصرفها على السهر والخمور.

كيف انتهت الأمور معه إذن ؟

عاد بعد فترة طويلة كنت قد بدأت العمل في الحانة بعد محاولات فاشلة في البحث عن عمل وسفر الأسرة التي كنت أرعى صغيرهم وقت عملهم.. عاد منتهي ، مريض ظل يعاني كثيرا ولا أستطيع أن أنكر أني كنت اتلذذ بمعاناته وتمنيت إن تطول به الى الأبد.

ساد صمت بيننا بضعة دقائق..سكبت القليل من النبيذ في كأسها ولكني رفضت إن تسكب في كأسي فرأسي كان لا يزال مثقل..استغربت كلماتها عن تلذذها بمعاناة زوجها بالرغم من ظلمه لها ولكني شعرت بحقد خفي بداخلها لم يهدأ بعد..

ساد بعض الصمت بيننا نظرت حولي فوجدت على الحائط بجواري لوحة غريبة ..حصان أبيض يركب فوقه هيكل عظمي يرتدي لباس أسود و درع ممسك بعلم مرسوم به رسمة على شكل زهرة وأمام الحصان فتاة تجثو على ركبتيها وحول الحصان جثث كثيرة لأناس في أعمار مختلفة..والشمس في الخلف تغرب بين برجين ورقم لاتيني فوق اللوحة ربما رقم خمسة

غريبة تلك اللوحة! عن ماذا تعبر؟سألتها متأملا تفاصيل اللوحة..

ضحكت ثم سألتني هل أخفتك؟

لا ليس خوف..فقط فضول أجبتها بابتسامة

هذا هو كارت التاروت الخاص بالموت..

لا أفهم الكثير عن هذا المجال ولكن ماذا يعني هذا؟

الهيكل العظمي هو رسول الموت أما الدرع هو الجزء الذي لا يقهر في الإنسان حتى بعد الموت، الحصان الأبيض هو لون النقاء و الحصان رمز للقوة ،،العلم المكون من خمس بتلات يعكس الجمال والخلود والرقم الخامس هو رمز التغيير.

الرسالة من اللوحة هذه إن الموت ليس نهاية للحياة،،بل هو انتقال لمرحلة جديدة أو تغيير للحياة التي أعتدت عليها .. هناك جمال في الموت، الموت جزء متأصل في الحياة.

استغربت كلماتها كثيرا ،وجدت أسفل اللوحة طاولة صغيرة عليها الكثير من الشموع بمختلف الأحجام والألوان اعتقدت في البداية أنها ربما لجلسات التدليك ولكني وجدت بالجوار أشياء كثيرة غريبة مثل عيدان خشبية، بعض أكياس تحتوي على تراب ملون ،حبر أسود، الكثير من أنواع البخور وعظام صغيرة كأنها عظام لكائنات دقيقة لم أستطع تمييزها

نظرت إليها بدهشة شديدة ثم سألتها؛

ما كل هذا ؟

نظرت لي وضحكت؛

هل أثار السحر فضولك أيضا؟

أنا لا أؤمن بوجود السحر! لماذا تهدري وقتك في مثل تلك الخرافات،

أنتِ فتاة متعلمة كيف تؤمني بهذا الهراء؟

السحر ليس هراء، السحر وسيلة لكشف غموض العوالم التي لا نراها!

ألا يمكن أن تؤذيك تلك الأشياء بطريقة ما؟

بالعكس ! تلك الأشياء التي تسخر منها هي مصدر قوتي،، هناك من يحميني بها، هناك خدم تسعى لراحتي

شعرت أنها لو تود أن تدخل معي في جدال حول الأمر

دعك من كل هذا الأن ..هيا لقد وعدتك بتدليك ليساعدك على الاسترخاء.

دخلت غرفتها كانت مظلمة يتخللها ضوء الشموع حول السرير ورائحة زيت عطري ربما لافندر

طلبت مني خلع ملابسي واستلقي على السرير حتى تبدأ جلسة التدليك، قامت بتشغيل بعض الموسيقى الكلاسيكية الهادئة كان الجو مثالي للنوم أو للأسترخاء كما أرادت، اقتربت مني ووضعت بعض الزيت الدافئ على ظهري ثم شعرت بيدها ناعمة ورقيقة تدلك جسدي وكأنها تقوم بأحدي طقوس طرد الأرواح الشريرة وقد نجحت إن تريح أعصابي كثيرا فقد صار عقلي فارغ تماما!

بدأت أشعر ببعض الأثارة حين جلست بجسدها فوق ظهري واقتربت من رأسي وقبلتني في عنقي حتى شعرت بأنفاسها ،برائحة شعرها ،بتفاصيل جسدها ودون أي محاولة مني للمقاومة استسلمت

تماما لإغرائها وسبحت معها في عالم جديد لم أذقه من قبل وقد صدق صديقي حين توقع إن تحطم عذريتي ،، فقد أحاطتني بنشوتها وشعرت معها برجولتي للمرة الأولي ولكن الأمر كان أشبه بالجرعة الأولى لم أكن أدري إن أولي جرعات الأدمان تكون عند تلاقي الأجساد وأنه لن يكون أبدا لقاؤنا الأول والأخير !

نمت تلك الليلة في سريرها نوم عميق حتى استيقظت

أولي ساعات النهار أنظر حولي في دهشة فقد انتظرت بضعة دقائق حتى تذكرت اين أنا وماحدث.. كانت ترقد بجواري في سلام وكان وجهها أكثر براءة أثناء نومها كطفل صغير لم تلطخ الحياة بعد قلبه النقي..

ركضت أرتدي ثيابي حين تذكرت أمي وقلقها على غيابي.. تركت لفاطيما رسالة قصيرة أشكرها وبها رقم هاتفي..

كانت الشوارع في النهار أكثر كآبة فكل ما نجح الليل في اخفائه ظهر قبحه تحت أشعة الشمس القاسية..

عدت إلى البيت فرأيت أمي تنتظرني على الأريكة وكان يبدو عليها القلق وقلة النوم،، اعتذرت لها من غيابي الليلة الماضية وسامحتني فورا فهي لم تشك في أمري أبدا ..

استحممت وبدلت ملابسي وركضت الى الجامعة وأنا أفكر متى سوف أري فاطيما مجددا..

• • •

مضت أخر سنة في الجامعة سريعا ..كانت زياراتي الاسبوعية لفاطيما بمثابة مسكن قوي لأي مشاعرسلبية ..كنت أنزع كل شيء بداخلي على عتبة بابها ..حزني ..مخاوفي وحتى ملابسي

كنت أشعر معها بالدفء وكنت أشعر بتعلقها بي يزداد في كل مرة..

كانت امرأة قوية بالرغم من صعوبة حياتها ..كنت أشعر بأن هناك غلاف خارجي من الأشواك حولها حتى لا يستطيع أحد ايذائها .. كنت أشعر أن بداخلها نزعة انتقام من أي رجل يحاول إن يجرحها ..وكنت أشك كثيرا في نهاية زوجها التي لم تخبرني عنها ابدا

علاقتي بفاطيما كانت مبهمة ..لم أعرف إن كنت أحببتها أم لا ..فقد كانت تمنحني الكثير من السلام في كل مرة أكون بين ذراعيها.. كان لها سحر خاص حتى في أبسط الأشياء ولكن الخوف ظل حاجز داخلي إن لا استسلم لحبها ..الخوف من المستقبل ،من أمي و أبي إذا

علموا بعلاقاتي بها،الخوف من طبيعة حياتها..كنت أنسى كل ذلك معها ولكن مجرد عودتي الى المنزل كنت أمنع نفسي بقوة إن لا أفكر فيها

كم كنت أناني فقد أخذت منها الكثير دون أن أمنحها شيء..لم أخبرها يوما أني أحبها..لم أكن أثق بمشاعري أو بها ولكني لم يكن عندي شك أنها أحبتني بصدق..

بعد التخرج بعدة شهور تلقيت اتصال من أبي غير لي مسار حياتي:

أهلا شادى..كيف حالك يا بني ،أفتقدك كثيرا..

بخير يا أبي ..كيف حال زوجتك الجديدة؟ سألته

ساد بعض الصمت قليلا حتى أجابني:

أسمع شادى أنا لم أتصل بك من أجل ذلك الأمر هناك أمر هام بخصوص مستقبلك..لقد وفرت لك فرصة ممتازة للعمل في سفارة المغرب بالقاهرة.

القاهرة! ولكنك تعلم يا أبي أني لا أريد أن أترك المغرب..كيف سأترك أمي وحدها لم يبق لها سواي من سيعتني بها في غيابي؟

يا بني! لابد أن تفكر بشكل عملي..هل تعلم كم شاب يحلم بتلك الفرصة؟كما إن أخيك سوف يعود بعد انتهاء دراسته ..تمهل في قرارك ولا تستعجل الرفض.

أخي يا أبي لن يعود وأنت تعلم ذلك فقد كان يبحث عن أي مخرج من المغرب و لن يعود بقدميه إليها ..ألم ترى كيف ينتقد كل شيء أثناء أجازته السنوية ؟فهو يعد الأيام في كل مرة حتى يعود الى غربته..

أي كان يا ولدي ..أنت لست صغير وسوف يكون لك حياتك الخاصة يوما لن تظل تلتصق بأمك هكذا كالطفل..فكر في مستقبلك.

أغلقت المكالمة مع والدي وأنا بائس و غاضب فهو الآن يفكر بطريقة عملية ولكن حين كان الأمر يخص مشاعره الخاصة ضرب كل شيء عرض الحائط وسمع فقط صوت قلبه..

ازدادت زياراتي لفاطيما بعد التخرج فلم يكن لدي أي مخرج لمواساتي سواها..كنا نسهر في شقتها على أضواء الشموع مع كؤوس النبيذ الأحمر والموسيقى الهادئة ..كان كل شيء رائع لساعات لقاؤنا فقط حتى ذلك اليوم حين أخبرتها بمكالمة والدي فرأيت منها ما لم اراه من قبل ..

ثارت فاطيما ثورة عارمة ..اتسعت عيناها وصرخت في وجهي:

هل تفكر حقا في السفر؟ كيف لك أن تتركني؟

استفزتني كثيرا عصبيتها المفاجأة و دون إن أشعر صرخت أنا الأخر

فاطيما ! أنا لم أقرر بعد ولكن ليس من حقك أو من حق أي أحد إن يجبرني على شيء..

انهارت فاطيما في البكاء ترجوني أن لا أتركها وقد أثار فزعي ضعفها أكثر من قوتها..

غادرت منزلها تلك الليلة وأنا أشعر إن العالم من حولي ضدي..كل شيء أصبح بلا معنى

عندما عدت إلى المنزل كانت أمي في انتظاري ولكن تلك المرة كان أسلوبها مختلف تماما

أين كنت؟ سألتني بلهجة غاضبة

قلت في نفسي (المصائب لا تأتي فرادي)

لقد أخبرتك يا أمي لقد كنت مع صديقي .

أنت تكذب شادى..أنت لم تكن مع صديقك لا اليوم ولا كل الأيام التي كنت تسهر بها حتى الفجر..فأخبرني بالحقيقة لم أعتاد منك الكذب يا بني..

بدأ صوتها يتخلله الضعف وقبل إن تبكي أخبرتها بكل شيء عن فاطيما وعن مكالمة والدي

لم أتوقع ردة فعلها فقد عانقتني وبكت كثيرا:

شادى أنا أحبك يا ابني أكثر من أي شيء في هذا العالم وأنا لست غاضبة منك ولكن أرجوك أقطع علاقاتك بتلك العاهرة فقد تؤذيك أو تهدم مستقبلك ..لا تجعل طيش الشباب ندبة في مستقبلك لازلت صغير ولا تعرف الكثير عن الحياة..أما بخصوص سفرك الى مصر فأنا أرحب تماما به رغم أني سوف أفتقدك كثيرا ولكن تلك فرصة لا تعوض كما قال أبيك كما أنها سوف تسهل أمور عملك في المغرب هنا بعد ذلك ..والسفر الى مصر ليس بصعب سوف أقوم بزيارتك هناك ولن تشعر بالغربة في بلد عربي ثقافته قريبة من ثقافتنا.

للحظة تفاجأت من كلام أمي ولعل حكاية فاطيما هي ما جعلتها

ترحب بفكرة السفر ربما لتبعدني عنها

رغم أني لم أخبرها بحقيقة مشاعري تجاهها والتي نفسي أجهلها..

فكرت في كلمات فاطيما كثيرا..هل حقا نختار حياتنا ..هل تلك الفرص اختيارات حقيقية تحتمل القبول أو الرفض أم أنها أقدار لابد من طاعتها طاعة عمياء..صار الوضع الآن أصعب ، لم يعد باب فاطيما مفتوح على مصراعيه كما كان من قبل ..بعد أن اعتادت أن تعطي بلا مقابل صارت تلتمس مني الأحساس بالأمان..صارت تنظر لي كمنقذ لديه القدرة على إصلاح ما حطمته الأيام بها ولكني كنت أضعف من ذلك..أضعف من المواجهة..أضعف من إنقاذ نفسي أو ربما كانت أنانيتي ترضيني بتلك الساعات القليلة التي أمنحها فيها جسد بلا قلب..

ضاقت كل السبل في المغرب وأصبحت الفرصة فرض لابد من تأديته..أعددت نفسي للرحيل إلى مصر تارك كل شيء خلفي..أمي بحزنها ..فاطيما بمتطلباتها..أبي بحياته التي أختارها وأخي الذي صرت أشك في رؤيته مجددا..كان كل شيء يدفعني للبدء من جديد بعيدا عن هذا العالم الذي سئمته ..

شعرت برغبة شديدة أن أودع فاطيما بالرغم من كل شيء .. لابد من وضع نقطة عند انتهاء السطر فالكلمات المتداخلة تفقد المعنى..

كانت ليلة هادئة من ليالي الشتاء شديدة البرودة..اتجهت نحو منزلها للمرة الأخيرة وأنا لا أدري أي كلمات يمكنها إسعافي أو إسعاف قلبها..ماذا يقال في الوداع؟ شكرا و لكني لم أستطع أن أحبك أم ربما أحببتك ولكني لست مستعد لحرب من أجلك أم وداعا فأنت خارج

حياتي بعد كل شيء منحتني اياه؟

اللعنة! كيف ليس هناك من طريقة للفراق دون ألم ؟ كيف تصبح كل الكلمات بلا جدوى بمجرد إضافة كلمة وداعا لها ؟

فتحت لي الباب وقد بدا عليها الإعياء الشديد وكانت رائحة البخور تلك المرة خانقة و كأن شيء بالداخل يحترق..دعتني للدخول دون كلمة لوم واحدة عن غيابي الفترة الماضية.

أنتي بخير؟ سألتها

منذ متى يسأل الجلاد إن كان المتهم بخير؟

كانت عيناها قاسية تحمل الكثير من الغضب

انا لست جلاد فاطيما وأنت لست بمتهم..لا تدعي الأمور تتفاقم معك،كل ما في الأمر بأن هناك فرصة عمل و أنا بحاجة إليها

اقتربت مني ونظرت لي نظرة عميقة حتى شعرت برعشة في جسدي ثم قالت بصوت محموم:

أنت رجل..إذن أنت كاذب.. أعدك أنك سوف تندم كثيرا..

بدأت أشعر بسخافة الموقف وقررت الرحيل فسمعت صرخة قوية ويدها تشدني من كتفي

نظرت إليها و فزعت كثيرا فكان وجهها يزداد إعياء وعيناها تزداد غضب

أمسكت بي بقوة من قميصي واقتربت مني وصرخت بكلمات غامضة

لم أفهم منها شيء ثم بدأت أفسر حين قالت:

رحيلك من المغرب يعني موتك حي..لن تجد الراحة بين العوالم التي لا تدري عنها شيء،

سوف تتعذب روحك كثيرا حتى تجد ما تحب أمامك و تعجز عن لمسه..كل ما في قلبي من أسي لك!

ثم دفعتني بعيدا بقوة حتى وجدت نفسي على الأرض أمام باب الشقة..ركضت للخارج وأنا في حالة هلع شعرت أنها قد فقدت عقلها ويمكنها فعل أي شيء مجنون..شعرت بأني مسئول عن تلك الحالة التي لم أراها بها من قبل حتى أني كرهت نفسي كثيرا وقتها..

• • •

استمرت دائرة الوداع الموجعة في الاتساع.. الساعة السادسة صباحا في مطار مراكش صوت النداء الآلي يعلن الباقي من الزمن على انطلاق الطائرة المتجهة الى القاهرة.

بعد محاولات فاشلة من أمي لتبدو سعيدة أو ثابتة على الأقل اجهشت في البكاء عندما حان الوقت

وجود أبي لا شك قد زاد من وجعها ومن وجعي حين رأيتهم لأول مرة سويا كالغرباء

كل منهم يتحاشى النظر في عين الآخر! كم غريبة تلك الحياة حين ترجعنا للحظات الأولي دون أن تمنحنا رحمة النسيان!

ودعتهم وودعت المغرب وودعت نفسي القديمة واستسلمت للتيار يحملني في اتجاه الموج دون أي مقاومة مني للنجاة.

أتذكر تلك اللحظة الأولي،

عندما تستنشق هواء بلد جديد، بلد آخر غير هواء وطنك الذي اعتدته منذ أن بدأت التنفس .. منذ صرختك الأولى..كأنك تولد من جديد ولكن تلك المرة لا تقوى على الصراخ فقط تحاول التنفس وكأنك تحاول التنفس تحت الماء ملتمس البقاء.

استلمت العمل في السفارة و صارت الأمور بشكل جيد ربما لأني لم أضع أي توقعات لا بالسلب ولا بالإيجاب..

مضت أيام من الهدوء، ثم شهور أقرب الى سنوات

كنت أشعر في كل يوم أني إنسان أخر .. إنسان لا أعرف عنه شيء .. أعيش حياته، العب دوره بجدارة .

سافرت كثيرا في رحلات عمل، لم تعد المطارات بنفس الرهبة الأولى فعندما نواجه مخاوفنا فإننا نعلن الانتصار عليها بلا شك.

كنت أشعر كثيرا أني مريض ولكني كنت أرجع ذلك دائما لمرض الحنين إلى الوطن و الذي تتفاقم أعراضه في المساء وخاصة في ليالي الشتاء

كنت أسافر إلى الإسكندرية بعض الأيام بالقطار حتى استأجرت شقة صغيرة بالقرب من ستانلي،

بدأت صحتي في التدهور كثيرا دون سبب واضح.. إرهاق شديد، ألم في ظهري مستمر، نوم لساعات طويلة حتى أني بدأت أتغيب كثيرا عن العمل

لا أحد من الأطباء الذين قمت بزيارتهم أخبرني بسبب مقنع،

البعض فسره على أنه اكتئاب والبعض الأخر فسره على أنه إجهاد يحتاج الى راحة ليس أكثر..

صار الوضع يزداد سوء مع مرور الوقت حتى ذلك اليوم عندما كنت في شقتي في الأسكندرية كنت قد وصلت الى مرحلة من الإجهاد لم أقوى بها على الحركة، عضلات جسدي كانت متشنجة بشكل غريب، ميل للقئ و دوار في رأسي

ملأت حوض الاستحمام بماء ساخن على أمل أن أشعر ببعض التحسن وتسترخي عضلاتي..

بعد قليل شعرت بالبخار يملأ الحمام لدرجة أني لم أعد أري أصابع يدي أمامي، حاولت الحركة فلم أستطع كنت في حالة شلل تام

بدأت أسمع أصوات غريبة، أصوات صرخات وصوت قريب من صوت فاطيما..ظل البخار يتصاعد حتى شعرت باختناق شديد لم أستطع التنفس

صوت الصرخات يتصاعد من حولي حاولت إن أضع يدي على أذني فلم أستطع

لا أدري كم مر من الوقت حتى فقدت الوعي وفقدت الاحساس بكل شيء

ولا أدري كم مر من الأيام أو من الأعوام حتى أدركت أني لم أعد أنتمي الى هذا العالم وأني لم أمت بعد!

• • •

أن ننتظر لا يعني أن لدينا فائض من الصبر، أحيانا ننتظر لأنه الشئ الوحيد المتاح بعد أن نكون استنزفنا كل أسلحتنا في معركة ما وفشلنا، فنعلن هزيمتنا ونرفع رايات الاستسلام، نعتنق الصبر ونلجأ للانتظار!

و كم من عمر أضاعه الأنتظار؟؟

سمعت صوت رنين الهاتف وكأنه قادم من عالم أخر ،

لا أدري كم الساعة الأن، ربما مر عدة ساعات وأنا مستلقية علي الأرض بين النوم واليقظة لا أقوى على الحركة..

الو!

كيف حالك سارة؟ أنا أمينة من شؤون الطلبة، وددت أن أبلغك أن عدم حضورك الامتحانات سيضطرك لإعادة السنة إذا لم يكن لديكِ عذر قوي..

لدي الكثير من الأعذار، أجبتها

إذن لابد أن تحضري لتقديم أعذارك عزيزتي يؤسفني أن أخبرك بأن وضعك سئ

أغلقت الهاتف دون إجابة مني، لم أكن انتظر تلك المكالمة في هذا التوقيت .. فلست بحاجة الي أمينة كي تذكرني بسوء وضعي!!

لم أكن أحتمل تلك الغرفة فكل شئ بها أصبح له رائحة الموت ، غسلت وجهي وغادرت ...

لا أدري الي اين اتجه ؟ كيف يمكن أن يضيق العالم بوسعه ليصبح لا يتعدى أربعة جدران؟

اتجهت الى المطعم الذي اعتدت أن أقابل شادي به، كان عازف البيانو يعزف فيروز (بناديلك يا حبيبي ما بتسمعلي ندا ولا التلات القريبة بترجعلي الصدا، كأنك ما حدا .. ضايع بهالمدى)!!

فكرت للحظة، هل يمكن أن تكون الحياة عوالم متوازية ؟ وكيف تنتقل أرواحنا عبر تلك العوالم ؟ هل هناك قواعد للعبة ! وكيف استطاع شادي أن يكسر القوانين ؟ أن ينتقل بين عالمين لا يلتقيان !!

جاءني صوت النادل ليقطع حبل أفكاري:

أهلا سيدتي! منذ فترة لم نراكِ

حقا! هل تذكر آخر مرة؟ هل تذكر الشخص الذي كان بصحبتي دوما؟ سألته

آسف! لكني أذكر أنك دوما كنتِ وحدك ..

ابتسمت له وأجبته في استسلام : بالطبع.. كنت وحدي ..

جلست في المطعم حتى غروب الشمس.. كنت انتظر شادي رغم يقيني أنه لن يأتي .. تلك المرة كانت الحقيقة أقوى من تزيفها.. تلك المرة خذلني خيالي وخذلتني أحلامي .. أعلنت استسلامي ورحلت..

اتجهت نحو محطة القطار ،

أثناء السفر جلست بجواري سيدة عجوزة لوهلة ظننتها جدتي ،، كانت تشبهها تماما

ترتدي عباءة سوداء وكانت لها رائحة تشبه المسك

بعد قليل نظرت الي وبدأت بالكلام :

تبدين حزينة بنيتي، هل أنتي بخير؟

نظرت الى عينيها كنت أري طيبة جدتي ؛

صدقيني لا أدري

مدت يدها وقالت: أعطني يدك صغيرتي لا تخافي

أمسكت بيدي وأنا لا أفهم ما تفعل

نظرت في كفي ثم نظرت إلي في حزن وقالت

قلبك متُعب بنيتي!

لم اجبها بدأ يراودني شك بأنها قد تكون أحد النصابين رغم أنها

لا تبدو كذلك

أكملت حديثها؛

روحك تائهة، كل أحبتك في عالم وأنتِ في عالم، أنتِ لا تنتمي الي هنا ! ولكنك ستجدي راحتك في

النهاية

سألتها: في أي عالم ؟؟

ربت على يدي ولم تجبني ..

ثم ساد صمت بيننا حتى وصلنا محطة القاهرة،،

• • •

ان تؤجل الحياة أحلامك إلى أجل غير مسمى ربما أشد قسوة من أن لا تمتلك أحلام ! الأحلام المؤجلة تطاردنا كأشباح في منتصف الليل تطلب التحرر، توقظنا من غفلتنا كل ليلة،، تدق ناقوس التذكرة،، ها هو يوم قد مضى وما زالنا مقيدين بسلاسل القدر !!

اقتل أحلامك قبل أن تقتلك..

عدت إلى بيت جدتي، كانت الخالة سعاد عادت شقتها،

كم صار المنزل فارغ !! تماما كعقلي .. عقل احاطه الضباب من كل الاتجاهات حتى حجب الرؤية فلم يعد يقرأ محتواه...

دخلت غرفتي،، كم أفتقده الآن ! تمام كفقداني الأمل بأن أراه!! ترى ماذا يدور حوله الآن ؟ ترى فيم يفكر؟ بما يشعر؟ هل يفتقدني ايضا؟؟

نظرت طويلا إلى شجرة الاحلام ! نزعت أوراقها وكأني انتزع جزء مني مع كل ورقة،،

لا..لن أصير تحت رحمتها الأن

أنا من صنعتها وأنا من سأمزقها قبل أن تمزقني!!

فتحت أوراقها قبل أن أمزقها؛

١) كن خيالا في قبح الواقع

٢) جدتي سعيدة بما تمنت

٣) أم تحتاج لي قبل ان احتاج اليها

٤) كاتبة

٥) رجل مثالي في عالم لا يعترف بالمثالية

توقفت للحظة مندهشة !! لقد تحققت كل الأوراق بطريقة ما!!

شادي كان خيالا وجدتي كانت ترقد مبتسمة، الخالة سعاد اعتبرتني أبنتها وها هي الجامعة اتصلت تحذرني وكريم الرجل المثالي الذي لم اتمنى ابدا ان يكون هو!!

ولكن هل تمنت جدتي الموت؟

هل اعتبرت الخالة سعاد أمي؟

هل تمنيت أن أترك الدراسة لأكتب؟

كيف يمكن للحياة أن تخدعنا بصور مزيفة من أحلامنا ؟!

كل ما حدث كتبته .. ولا شئ مما تحقق تمنيته!

شعرت بالغضب أكثر ،، مزقتها إلى أجزاء صغيرة تظهر منها بعض الكلمات ووددت لو مزقتها لحروف أصغر لا تعني شئ..

ولكن كفى وقت ضائع من أجلها، يكفي ما سقته لها من سنين من عمري حتى تزدهر وتبقى على قيد الحياة..

أمسكت بالقلم أتحدث به ومعه:

حلق بعيدا في الفضاء

ان لم تسعك حدود الأرض

ان صار دورانها ممل

يعيد نفس التفاصيل في صمت

حلق بعيدا في الفضاء

أن أنهكتك قوانين العالم الحمقاء

ان ضاقت السبل بك

وصارت الجاذبية مصدر شقاء

حلق بعيدا في الفضاء

أن سئمت أعين الناس وثرثرتهم وشكواهم

وصرت وحيدا وسط المليارات

حلق بعيدا في الفضاء

ان عشت أكثر من حياة

وأكثر من شخصية

ولم تجد نفسك في كل الأدوار

حلق بعيدا في الفضاء

أن صارت احلامك ثقيلة

ومشاعرك باردة

وافكارك محمومة من البقاء

حلق بعيدا في الفضاء

ان صار نهارك ليل وليلك نهار

وصارت كل فصول السنة سواء

حلق بعيدا في الفضاء

أن أصبح الأمس ندبة تحملها في قلبك

والحاضر عبء على صدرك

والغد علامات استفهام لا تحمل جواب

اخلق من ضلوعك أجنحة

واصنع عالمك الخاص

ودع الارض تحترق خلفك

بأهواءها وملذاتها وكآبتها وأوهامها

وحلق بعيدا

• • •

اذكر تلك الحكمة الفرنسية:

الزواج هو الحرب الوحيدة التي تنام بها مع العدو

الزواج بدون حب هو عقد بيع لجسدك وقلبك وعمرك مقابل لقب ،فقط لتثبت للعالم بأنك لست وحيد حتي و ان كنت آخر شخص في العالم ،،

مضت أيام على وجودي في منزل جدتي، لم اتصل بالخالة سعاد ربما أنها لم تلمح وجودي بعد ،،

كم انتظرتك شادي!!

كم خاطرتك !!

كم عانقتك في خيالي ولكن خيالي قد ضعف كثيرا عن ذي قبل !

كم بكيت لك ومن أجلك!

كم تمنيتك وكم خشيتك!

أخشي أن لا تعود فأنسي عطرك وأنسي ملامح وجهك..

وأخشى أن تعود وأحبك أكثر وأغرق بك اكثر!!

لقد وضعتني بين خيارين كلاهما قاتل،،

فأنت لست موجود حتى في أصدق لحظات وجودك!!

كم أحببتك !

أحيتني وأنت لا تملك حياة!!

وقتلتني وأنا على قيد الحياة!!

دق جرس الباب، فتحت فإذا بالخالة سعاد شعرت وكأنها تكتشف خيانتي!

سارة،، أنت بخير ؟ لماذا لم تتصلي بي فور وصولك؟ سألتني بنبرة لوم

كنت أفضل أن أكون لوحدي،كيف علمتي بوجدي؟ سألتها

من حارس العقار ،يبدو أنك لم ترغبي في زيارتي، فأنتِ لم تدعوني للداخل حتي الأن ؟ قالتها وهي مصدومه

آسفة خالة، لم أقصد حقا ،سامحيني أرجوكِ تفضلي، احتضنتها ودعوتها للداخل

سارة، أنا مثل والدتك أخبريني ماذا بكِ؟ أنا قلقة صغيرتي..

سألتني بصوت حزين

لا أدري خالة لقد بحثت عن نفسي كثيرا ولم أجدها، كيف يمكن لأرواحنا أن تغادرنا ونحن مازلنا أحياء ؟

شعرت أن كلامي قد زاد من قلقها، نظرت إلي نظرة طويلة تحاول أن تقرأني ثم بعد ما فشلت قالت لي:

لن أتركك وحدك سارة، ستقيمين معي حتي وأن رفضتِ الزواج من كريم، أنتِ ابنتي شأتي أم أبيتي

أنا لم أرفض الزواج من كريم، أنا فقط رفضت التوقيت ! أجبتها في لحظة يأس

شعرت بفرحة خفية في عينيها، ثم بحماس أجبتني :

إذن دعينا نكتب الكتاب فقط ونؤجل الزفاف، صدقيني سارة جدتك سوف تسعد كثيرا بهذا فهي كانت أمنيتها أن تراكِ في الفستان الأبيض وتطمئن عليكي .

هل تظني انها ستعرف بأمر زواجي ؟ هل ستراني حقا في الفستان الأبيض؟ هل الأموات تعيش بيننا؟

بالطبع بنيتي ! كم حلمت بجدتك كانت تحدثني بصوتها وكانت تسمعني ايضا ،أوصتني بكِ كثيرا، قالت لي : اعتني بـ سارة فقلبها حزين..

سرحت قليلا في جدتي ودون أن أشعر أو أفكر قلت لها:

أنا موافقة على الزواج من كريم

لم أري الخالة سعاد فرحة هكذا، عانقتني بقوة وتركتني لتزف الخبر الي كريم...

• • •

شعرت بوجودها دون أن تشعر بوجودي، سألت نفسي هل هي ملاك ينتمي الى العالم الأخر حتى رأيت دموعها فأدركت أنها من البشر المعذب في الأرض، رأيت جمالها دون إن تراني، رأيتها تبتسم، تبكي، تسمع الموسيقى،تقرأ، رأيتها نائمة،سعيدة، عابثة، كنت أطوف حولها كفراشة حول الضوء تلتمس الدفء و تخش الاحتراق..

سارة .. نعم لقد تلاقت أرواحنا قبل إن تتلاقي أجسادنا بكثير ،روحك الشفافة شعرت بروحي الأسيرة، لمستني حتى القاع، ولا أدري من منا كان قادر على إخراج الآخر من شرنقته، أحببتك دون أن تدري وقبل أن تقعِ في حبي

كانت طاقة الحب وحدها هي القادرة على تجاوز حدود العوالم بيننا

كان الحب وحده القادر على تحطيم لعنة فاطيما فقد لمستك حيا أو ميتا شعرت بك كأحساسي الوحيد بالوجود

سارة.. يا حورية الأرض هنالك جمال يليق بكِ خارج حدود الكون ،، هنالك عوالم أخرى تطوف حولك

تلتمس ابتسامتك..

يقولون سنظل سويا حتى الموت ولا أدري أن كان ذلك عن جهل ! فأرواحنا خالدة قبل الموت وبعد الموت

فقط ابعاد العالم هي ما تتغير حولنا، حدود رؤيتنا هي ما تختلف ،أجسادنا هي ما قد تتبدل ولكن الموت ما هو سوى حياة أخرى لأرواحنا حياة بلا زمن وبلا ساعات وبلا مواعيد فاعذري فرق التوقيت بيننا حبيبتي

فا أنا أنتظرك بلا وقت، لن انتظرك لغدا لأني لا أملك الغد ولكني سأنتظرك للأبد!

• • •

يقول أفلاطون: "كل بداية لها نهاية، وهذه النهاية هي البداية لشيء آخر"

بعض النهايات نكتبها وبعض النهايات تكتبنا، فحين نمسك بالقلم لنخط أخر سطور الحكاية فنحن في معركة حية مع أنفسنا !

هل الانسحاب في اللحظات الأخيرة ضعف أم قوة ؟

هل النهايات الحزينة تعكس وجعنا أم أنها نهايات واقعية؟ هل للقلم حق التغيير والحذف أم يظل للقدر الكلمة الأخيرة واليد العليا؟!

ما أصعب النهايات حين نختارها،، وما أقساها حين تختارنا!

ما أسهل الكلمات حين تكتب؟ ليس هناك أكرم من الأحلام، فهي لا تقول لا لأي فكرة !!

أتود أن تحلق في الفضاء؟ أجعله حلما

أتود أن تصبح ذو قوة خارقة؟ أجعله حلما

أتود أن تلتقي بنصفك الأخر؟ أجعله حلما

فالأحلام مفتوحة على مصرعيها ،يمكنك أن تزرع بها ما تشاء فهي أرض خصبة لأفكارك ستنبت دوما بمزيد من الأحلام ،

وعلي الجانب الأخر سوف تضحك كثيرا الحياة ،،

فهناك قواعد لأحلامك لم تدركها بعد، فحتى وإن وافقك الحلم ستظل تلتمس من الحياة أن تنفخ فيه الروح، أو تبعثه حيا بعد الموت،

الحياة لا تخسر ابدا، ربما تعرض عليك صفقة لتربح حلمك ولكن لابد وأن تدفع ثمنه

ولكل حلم ثمن !!

لا أعلم كيف استقبل كريم خبر موافقتي على الزواج منه، ولكن الخالة سعاد أكدت لي بأنه سعيد للغاية،

في اليوم التالي زارني كريم، كانت عينيه تلمع بفرح، كان خجول كعادته، كم وددت لو كانت مشاعرنا أبسط أو لو أننا نستطيع أن نشكلها كالصلصال فنشتاق وقت ما نحب ونحب من نريد أن نحب ونمحو من ذاكرتنا من رحلوا عنا وتركونا في غيابة الجّب ليتلقطنا من هم مثل كريم يمدوا أيديهم ونحن لا نشعر بهم ولا نراهم !!

أود أن أشكرك سارة، أعدك أنك لن تندمي علي قرارك، قالها كريم بصوت خجل

علام تشكرني كريم؟ الزواج قرار مشترك، أما بخصوص الندم فلا أحد يدري، ربما أنت من تندم يوما .

أشعر أنكِ لست سعيدة بزواجك مني، أن شئتِ يمكن تأجيل العرس

شعرت باليأس قد عاد لصوته

لن يكون هناك عرس كريم فجدتي توفت منذ أيام، أخبرني ماذا تعني السعادة لك ؟

ارتبك قليلا لابد من أنه كان ينتظر رد أخر مني، ربما أكثر طمأنينه

لا أدري سارة فكل منا يرى السعادة من منظوره الخاص، البعض قد يراها في قصر والبعض قد يراها في قطعة شوكولاته

و ماذا عنك؟ فيما ترى سعادتك؟ سألته

أجابني بعد أن خرج من شرنقة الخجل قليلا ؛ أراها فيكِ سارة..

لست واثقة كريم من أني سأمنحك السعادة التي تنتظرها، يقال أن فاقد الشئ لا يعطيه وأنا أخشي عليك من الخذلان، أنه اسوء ما قد تمنحك الحياة!

أنا أعرفك جيدا، ربما سافرت منذ سنوات ولكن أعلم أنك من الداخل بيضاء كالثلج ولكنك عشتِ حياة قاسية أفقدتك الأمل في كل شئ

أشك في ذلك ! فأنا نفسي لم أتعرف إليها بعد !

ساد صمت لبضعة دقائق ثم أنهي حديثه بأن الخالة سعاد قد

حددت موعد المأذون غدا وأني لابد وأن أتخذ قرار جاد قبل الغد أن لم أكن واثقة في قراري.. ثم رحل

كيف يمكن أن اتخذ قرار مصيري في بضعة ساعات ؟ وهل لي حقا أن اختار ؟ وما هو الإختيار؟ أن اتزوج كريم ام ان انتظر أن يطلق سراح شادي الموت؟

لم أنم تلك الليلة، فكرت كثيرا في كل شئ وفي لاشئ ،، كان عقلي مجهد وقلبي يشعر بالذنب !!

في الصباح حضرت الخالة سعاد ومعها فستان العرس، لم يكن فستان عرس بمعنى الكلمة ولكنه كان فستان

أبيض رقيق أرتديه عندما يحضر المأذون، كانت تبدو في عجلة من أمرها، تركت الفستان وقالت لي جملة واحدة ؛

اليوم أنتِ أميرة وسأتوجك بيدي، ابتسمي كثيرا فقد افتقدت ابتسامتك! .. قبلتني ورحلت...

لابد من أن كريم قد أخبرها بحديثنا أمس فهي تبدو قلقة وتحاول أن تعجل بمراسم الزواج قدر المستطاع..

كان يوم ممطر .. لم تشرق الشمس وسط السحاب ،، كم عشقت رائحة المطر .. رائحة الأرض الرطبة المملوءة بالحياة ،، أمطرت كثيرا ربما تودع السماء فصل الشتاء !

ارتديت الفستان و نظرت في المرآة، تخيلت أني أطوق شادي بذراعي وأبي وأمي ينظران إلينا في فرح

تخيلت جدتي تشاور لي بأني جميلة وأنها سعيدة

ثم سقطت علي سريري، شعرت ببعد الواقع عن خيالي،، كم أنا بعيدة الآن...

رأيت سقف الغرفة يتفتح أمامي كشاشة كبيرة ،، كبلورة سحرية تكشف عالم آخر !

رأيت سماء ونجوم تتلألأ في جوف الفضاء

رأيت أمي مبتسمة تمد أيديها وأبي بجوارها يحتضنها

رأيت جدتي تنظر إلي في صمت

رأيته هو .. كان هناك .. شادي

ببدلته السوداء، بابتسامته الساحرة ،، بعينيه الغامضة الدافئة ،،

مددت يدي إليهم ،، ناديت كثيرا ولكن الدائرة أغلقت

واختفى كل شئ في لمح البصر!

بكيت كثيرا ،، نزعت الفستان عني في غضب شديد ،،

ملأت حوض الأستحمام وسقطت فيه كقطعة حجر تلتمس القاع

هنالك عالم آخر في انتظاري

عالم يخلو من كريم والخالة سعاد ...

• • •

سبحت بعيدا في عالم واسع و كأني أطفو في كوكب أخر دون جاذبية نحو الأرض

أناس كثيرة تطوف من حولي بأجساد عارية وأعين مغلقة

أماكن مظلمة وأماكن مضاءة بنجوم تتلألأ كقطع من الماس

أقترب مني طيف باهت نظرت اليه طويلا حتي أدركت أنه هو

شادي..أنا هنا حبيبي قلت له وأنا أحاول أن المس وجهه

كانت عيناه حزينة نظر الي وقال :

لا حبيبتي ليس بعد ..أنت لا تنتمي الى هنا

ولكني معك الأن أنا أنتمي إليك

سوف نلتقي حبيبتي ولكن ليس الأن وليس هنا

ثم أغلق عينيه واختفى

شادي..ناديت كثيرا ولكن صوتي كان مكتوم وضعيف

شعرت بيد تلمسني من خلفي ثم سمعت صوت أول مرة أسمعه

أطلقي رصاصة الحب علي الوحدة..سوف تكوني زوجة رائعة وأم رائعة

جدتي..حاولت أن أعانقها ولكن كان هناك حاجز غير مرئي بيننا

نظرت كثيرا حولي شعرت أني تائهة وسط وجوه كثيرة لا أعرفها

كان جسدي خفيف كريشة حتى أني لم أشعر به

أشرق في عيني نجم ساطع لم أقوي علي النظر ولكني سمعت أصوات من جديد

أصوات وكأنها تدور داخل رأسي

كم أنك جميلة سارة..تماما مثل أمك

نظرت حولي كثيرا أبحث عن مصدر الصوت لكن الضوء كان قوي فلم أرى شئ

• • •

ارتفع صوت الإنذار في المكان:

كود بلو ..الرجاء الاتجاه إلى الطوارئ

ابتعدوا عن المكان من فضلكم..

ثلاثون ضغطة مرة أخرى

هيا تحقق من التنفس من جديد

لا فائدة..

أعطي صدمة كهربائية

أنتظر..

أمبول ادرينالين..

ثلاثون ضغطة ..هيا!

الحمدلله عاد النبض..ضعوا المريضة على جهاز التنفس الصناعي وانقلوها الى العناية

كيف الوضع دكتور؟ قالتها الخالة سعاد في قلق

لا تقلقي لقد كتب لها عمر جديد..لابد من أنها كانت فترة طويلة مختنقة تحت الماء..هل أنتي والدتها؟

والدتها متوفية وانا من أعتني بها.

إذن انتبهي أكثر لها قد تكون محاولة أنتحار

أقترب كريم من الخالة سعاد بعد رحيل الطبيب

أنتحار؟ هل فعلت ذلك لتهرب من زواجنا؟

قالها كريم للخالة سعاد في صدمة

لا عزيزي بالطبع..لابد من أنها قد غفت وقت الأستحمام لا تجعل كلام الطبيب يثير شكوك..أحمد الله على نجاتها

الحمدلله أمي..كنت خائف كثيرا أن أفقدها..

كنت أستمع إلى كل شئ وكأنه حلم..فتحت عيني في غرفة المشفى وأنا أشعر بجهاز التنفس يخنقني أكثر

كان رأسي مثقل ومشوش

سمعت صوت الخالة سعاد:

حمدالله علي السلامة صغيرتي..لقد توقف قلبنا معك

حاولت أن أرفع عن وجهي جهاز التنفس ولكنها رفضت وأمسكت بيدي

لا عزيزتي..أتركيه الأن لاحقا سوف نتكلم أنا هنا بجوارك ولكن سوف أرحل بعد قليل وأعود اليك في وقت الزيارة فقد رفض المشفى الأقامة معك حتى تخرجي من العناية المركزة

كان هناك الكثير من المحاليل المعلقة ..لابد من أن بها دواء منوم فقد كنت ما أغفو قليلا حتى أجد الشمس قد غابت أو عادت من جديد فلم أدري كم مر من الأيام في تلك الغرفة الكئيبة

أتذكر إني كنت أري الخالة سعاد كثيرا ولكني لم أعلم متى كانت تأتي لزيارتي أو متى ترحل فقد كنت معزولة تماما عن العالم والوقت

لم أري كريم طوال فترة مكوثي في المشفى ..بعد عدة إيام لا أدري عددها تم نقلي إلى غرفة أخري أكثر حياة وبها تلفاز صغير وساعة أخيرا..

حتي تم أطلاق سراحي من هذا السجن بعد تحسن وضعي وعدت مع الخالة سعاد الى منزل جدتي

كان كريم ينتظرنا في السيارة ومعه باقة من الزهور البيضاء

حمدالله على السلامة سارة..قالها كريم دون حتى النظر الي

شكرا كريم ..لا أذكر أنك قمت بزيارتي في المشفى

ردت الخالة سعاد سريعا:

لا حبيبتي كريم زارك أكثر من مرة ولكنك دوما كنت نائمة حتى أنه أجل سفره من أجلك

كنت أشعر أن الخالة سعاد تكذب ولكني لم أعلق كنت أعرف أنه غاضب مني

• • •

لم يكن وصلك إلا حلما

في الكرى أو خلسة المختلسِ×

ضاق ثقب الخيال كثيرا حتى أحاطني الواقع من كل اتجاه فلم يعد هناك مجال للهرب.. تبخرت الأحلام أثر أحتراق الوصفة السحرية للسعادة.

أعلنت هزيمتي أمام الموت!

أمام الحب!

أعلنت انتصار الحياة ..

أنتهي فصل الشتاء.. فصل الحنين..

فصل اللقاء الأول والوداع الأخير..

فصل البحث عن الدفء وسط رفات الذكريات ..

وبدأ فصل آخر.. أكثر إشراقا ..

وبدأت معه حياة جديدة لزهور الأرض..

فصل شروق الشمس ..لا مزيد من السحب ..

لا أثر لأمطار الأمس..

صباح الخير صغيرتي؟كيف حالك اليوم؟

سألتني الخالة سعاد وهي تضع الفطور على الطاولة في غرفتي

بخير خالة..شكرا لك على كل شيء لكن لا داعي لتدليلي هكذا أود أن أفطر معكم فقد سئمت رقدة السرير

بالطبع حبيبتي..

اجتمعنا على الطاولة انا وكريم والخالة سعاد..سألني كريم عن صحتي وكان يبدو عليه الحزن

متى موعد سفرك كريم؟سألته

بعد يومين..

إذن يمكننا غدا أن ننهي إجراءات الزفاف..

شعرت أنهم قد استغربا كلماتي لكن الخالة سعاد ما لبثت أن ابتسمت وقالت:

بالطبع سارة..سوف أتصل بالمأذون الآن لحجز موعد غدا.

نظر كريم في دهشة ولم ينطق بكلمة..

كريم..هل يمكنني السفر معك..أود أن ارحل من هنا!

نظر إلى كريم وهو لا يفهم شيء..

بالطبع لكن ماذا عن دراستك؟

لا بأس فتلك السنة لم أستطع حضور الامتحانات وسوف أعيدها على أي حال..

شعرت بفرحة في عينيه رغم اندهاشه

سوف أنهي كافة الاجراءات هناك فور وصولي وأخبرك بتاريخ سفرك

في اليوم التالي حضر المأذون في الموعد المحدد مع كريم والخالة سعاد

خرجت اليهم وانا ارتدي تنورة سوداء قصيرة وقميص أبيض وشعري مرفوع لأعلي وكأني في إحدى مقابلات العمل

نظرت إلى الخالة سعاد في دهشة همست لها في اذنها:

أسفه ولكني لم أستطع ارتداء الفستان

قبلتني في جبيني وقالت:

لا بأس صغيرتي أعلم أنك لا زالت في حداد أنتي جميلة على أي حال

لم يكترث كريم لما أرتديه كان متحمس للغاية ينظر إلى في حب وفرحة

كان في قلبي غصة تعتصرني كلما نظرت إليه فكنت أعرف أني لن أحبه أبدا وأن شادى سوف يظل بداخلي لأخر نفس في صدري وكلما ازداد عطفه وإظهار مشاعره كلما زادت الغصة بقلبي

بعد رحيل المأذون دعاني كريم لتناول العشاء في الخارج..اتجهت معه وأنا أشعر بأني أحد تلك الدمى المتحركة بخيط ما لا أعرف مصدره..تجمد كل شيء بداخلي فلم أعد أشعر بشئ وكأني تركت روحي في ذاك العالم الغريب في تلك الليلة التي فقدت فيها الوعي..

×موشح أندلسي

• • •

نحن ننضج حين نستطيع أن نتلون مع كل مشهد من الحياة ..حين يصبح الألم جزء منا لا يكسرنا

نحن أقوى حين نفقد كل شيء فلا يبقى ما نخاف على فقده

نحن أسعد حين نحطم ساعات الأنتظار

نحن لا نخذل حين لا نضع كل أحلامنا في سلة واحدة

سافر كريم اليوم التالي بعد كتب الكتاب وسافرت أنا إلى الإسكندرية كي ألملم اشيائي من الشقة فقد وعدني كريم أن يرسل لي تذاكر السفر في غضون أسبوعين على الأكثر.

فكرت أن اتجه إلى الجامعة لكي أفهم وضعي في الدراسة ولكني أجلت تلك الخطوة فيما بعد.

كانت ذكرى شادى لا تفارقني..تمنيت لو أني أراه لبضعة دقائق، أن

أشعر بأي شيء من طيفة أشد به أزري ولكنه قد رحل كما لم يرحل من قبل..لم يترك أثر له حتى في أحلامي !

عندما فتحت باب الشقة صدمت ..كان كل شيء في الشقة محطم .. ملابسي مبعثرة في كل مكان..آنية الزهر مكسورة تحت النافذة حتى التلفاز كان مهشم ..دخلت الحمام كانت الأرض غارقة بالمياه وقد بدأت تنجرف نحو الغرفة..

في البداية ظننت أن هناك لص كان يحاول سرقة المكان وقت سفري ،لكن لماذا يحطم كل شيء إذا كان بدافع السرقة؟

ثم أدركت أنه هو ..شادى

بكيت كثيرا سقطت على الأرض وناديت عليه بصوت مخنوق:

شاااادي..

أعرف أنك غاضب مني..

شاااادي لا شيء قادر على ارجاعك بين ذراعي

لقد استسلمت شادى فأغفر لي..

كنت في حالة شديدة من الحزن واليأس..استلقيت على السرير ،احتضنت صورة أمي وأبي و رحت في ثبات عميق..

استيقظت في الرابعة صباحا كان كل شئ من حولي في حالة من الفوضى لا تسمح لي بالتفكير في أي شئ

لملمت ملابسي في حقيبة السفر دون تركيز كنت أود ان انهي كل

شئ سريعا وأرحل بعيدا عن هذا المكان الذي يجسد الألم أمامي في كل زاوية

أثناء عودتي في قطار السادسة صباحا رأيتها في المقعد الامامي وقد عرفتها من انحناءة ظهرها وعكازها الخشبي المميز، اتجهت نحوها وجلست في المقعد المجاور

أهلا خالة، هل تذكريني؟ سألتها

بالطبع بنيتي، أري أن عقلك ما زال مشوشا!

لم أتوقع أن تذكرني سريعا، نظرت اليها وتذكرت جدتي وددت لو أبكي علي صدرها ثم تماسكت قليلا وسألتها؛

أتذكرين قولك لي أني سوف أجد راحتي في عالم ما،

لقد حاولت الهرب إلى عالم آخر ولكني فشلت

لازلت عالقة هنا في هذا العالم وحدي ،مازلت متعبة كثيرا.

نظرت الي بعطف شديد لم أشعر به منذ رحيل جدتي

يمكنني قراءة عينيكي صغيرتي ولكن حين أخبرتك بذلك لم أشأ أن تؤذي نفسك، لابد أن تسير الأمور وفقا لقواعد الحياة لا تكسري القوانين و الا الوجع سوف يصبح أضعاف ما أنتِ فيه الأن

ولكنه كان هنا كان حولي في كل شئ ،كيف حطم القوانين ؟ كيف أحببته ولمسته دون شك ؟ثم رحل

دون وداع تركني أعاني نوبات الحنين تركني وسط دوامة من

علامات الأستفهام أعاني سكرات الجنون، أفتقده كثيرا خالة كيف لي أن أراه؟

سألتها ودون أن أشعر بدأت في البكاء

عانقتني ووضعت يدها على شعري بطريقة غريبة وكأنها ترقيني ،كانت تضغط علي رأسي قليلا ثم همست في أذني؛

سارة، ما كان لم يجب أن يكن! لقد تعذبت روحه كثيرا فهو لم يكسر القوانين بل هي من كسرته!

رفعت رأسي ونظرت اليها كانت عيناها شاردة لا تنظر الي وكأنها تقرأ ذرات الهواء

أنا لا أفهم شئ خالة، إذن أين هو الأن ؟ لماذا لم أعد أراه؟

يموت السحر بموت الساحر وتنقلب اللعنات علي البائس!

تغلق البوابات وتعود الأرواح إلى سكنها وسكينتها حتى يشاء القادر..

سكتت قليلا ثم قالت:

لقد ارتاحت روحه صغيرتي ولكن لا تقلقي لكل لقاء ميعاد محدد ولكننا لا نختاره..

• • •

حبيبي شادى:

باقي ساعة على انطلاق طائرتي..هل تذكر حديثنا عن الغربة؟ لم تعد الغربة تلك الحدود التي تفصل البلدان عن بعضها..فقد ضاق بي الوطن الذي عشت عمر به حتى أنه لم يعد يتسع الحزن بداخلي..

صار الهواء خانق في كل يوم أستيقظ به ولا أراك..صارت الطرقات بعدك وكأني أخطو فوق فتات أفكاري

ضاقت الأسكندرية بوسعها وفرغت القاهرة بزحمتها ولم يعد لي مكان هنا..

أنتظر الطائرة الآن كي تحملني إلى بلد آخر ..بلد لا يعرفني ولا أعرفه ..إلى مصير آخر ربما أكثر رأفة

هذه الرسالة هي الثالثة والستون ..

بعدد أيام رحيلك كتبت و بعدد أيام عمري المتبقية سوف أكتب لك !

أحبك كثيرا..

طويت الورقة ووضعتها في حقيبتي ثم اتجهت نحو باب الطائرة مودعة كل شيء خلفي

• • •

مر عامان على زواجي من كريم لم أزر مصر فيهما حتى في زياراته السنوية للخالة سعاد كنت أرفض السفر معه..رفضت العودة إلى الجامعة ..صرت أكتب عمود أسبوعي في إحدى المجلات المغمورة..

كريم كان رجل عطوف ..تحمل حماقاتي، برودي و صمتي الدائم كان يعي جيدا أني لم أحبه ولكنه كان يكتفي بالقليل مني ، دائما ما يحاول أن يسعدني ويلتمس لي الأعذار..

ترى هل سيتمرد يوما معلنا انتهاء عطائه واستهلاك طاقته؟

كنت أشعر إن قلبي قد غلق إلى الأبد حتى تلك اللحظة عندما بدأت تتحرك الحياة في رحمي..شعرت بميلاد جديد لجزء من روحي الذابلة.

زارتني الخالة سعاد قبل موعد ولادتي بأيام لترعاني وترعى طفلي بعد الولادة.

عندما حانت اللحظة تألمت كثيرا ..تمنيت أن يكون هنا يمسك

بأيدي..تمنيت أن يحمل طفلي ملامح وجهه

كنت أصرخ من ألم السنوات التي مضت وأنا لازلت أحبه ..حتى سمعت صرخته عندما وضعته الممرضة بين يدي.

مبروك مدام ولد جميل!

حملته بين ذراعي وتحسست وجهه في حب..سمعت همس في أذني أشبه بالحلم حتى سألتني الخالة سعاد:

ها حبيبتي ..هل اخترتي اسم بعد؟

شادى....

• • •